

تأليف

العلامة الكبير والحبر الشهير

الشيّخ الطّاهر مُحمّد سليمان

الأشعري عقيدة المالكي مذهبًا البدوي السّطوحي طريقةً، الأدهمي انتسابًا ولقبًا

نفع الله بها المسلمين وأجزل لمؤلفها الثواب العظيم

مكتبة الجندي

٥١ سوق أم الغلام - ميدان سيدنا الحسين

القاهرة - مصر - ٠٢-٢٥٩٠١٥١٨

الطبعة الأولى
١٤٣٠هـ -٢٠٠٩م

رقم الإيداع : ١٥٣٨ / ٢٠٠٩

مراكز توزيع:
١ - مكتبة دار العلوم الحديثة أم درمان شرق الجامع الكبير ت: ٤٥٩٧٩٣ - ت: ٤٥٩٧٩٤
٢- كوستي: ٠٩١٥٠٨٥٢٦٥/ ٠٩١٥٢١٢٣٠٠

تشرفت بطبعه
مكتبة الجندي
٥١ سوق أم الغلام - ميدان سيدنا الحسين
القاهرة - مصر ٠٢-٢٥٩٠١٥١٨

شكر وتقدير

عملاً بقول النبي ﷺ: « مَنْ لم يشكر الناس لم يشكر الله »

الترمذي وحسنه

أتوجه بالشكر للإخوة الذين وقفوا معي في تصويب هذا الكتاب من الأخطار المطبعية، ولا يخلوا مصنف من ذلك أو نقص، فإن كانت مسددة فلله الحمد والمنة والكمال لله تعالى.

وأرجوا الله تعالى أن يجعلها وغيرها خالصة لوجهه الكريم، وأن ينفع بها عباده المؤمنين، وأن يجعلنا من الذين دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سَّلام، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين.

الفقير إليه تعالى

مختار عبد اللطيف مختار



تعريف ورثاء

هو سليل أهل الفضل والصلاح أعجوبة الزمان بحر العرفان وارث السَّلف عظيم الشأن سيدي وأستاذي وسندي الولي الكامل العلامة الأستاذ/ **الطاهر محمد سُليمان**

ولد عام ١٩٣٢ بأم درمان في بيت تقي وورع وزهد وكرم بمنزل جده الشيخ يوسف الأحمدي. ونشأ في جو ملئ بالأخلاق النبوية ونهل من هذا المعين الصافي.

وقد جلسَّ لتلقي العلم على يد الأستاذ/ على إبراهيم أدهم -طيب الله ثراه- عام ١٩٤٨ وقد اكتملت دراسته في عام ١٩٥٨ وهو العام الذي انتقل فيه الأستاذ على إبراهيم آدهم إلى رحمه الله. فانطلق في رفع راية العلم وجاب البلدان شرقها وغربها في سبيل نشر هذه الرسالة السامية.

ألف:

١ - ذخيرة العلوم الكبرى في التوحيد والتصوف وهو الذي بين أيدينا.

٢ - ألف ذخيرة الفقه الكبرى.

٣- شرح على منظومة النصف من شعبان للإمام الشافعي

٤ - رسالة في التوحيد (أول واجب على المكلف).

وله كذلك كتب ورسائل تطبع.

توفى ﷺ بأم درمان يوم السبت ربيع الثاني ١٤٠٦ الموافق ٤/ ١/ ١٩٨٦م ودفن بمقابر البكري شرق استراحة جده الشيخ يوسف الأحمدي.

وقد رثاه بعض تلاميذه وهو الشيخ/ أحمد عبد الله الحسين العربي في قصيدة طويلة منها:

وأعظم بكرب قد دهى في حبرنا	والفقد في أهل العلوم أليم
هي ثلمة في الدين في زمن الدين	ضعيف والحياة جحيم
إن مات من أهل البطالة ثلة	ما أثروا وفقيد فرد العالمين عظيم
هل يستوي غيث يفيض على الورى	يحيى الموات من الورى ويقيم
هل يستوي هذا وآخر شغله	بهوى أن يغدوا وحين ينوم

وفي آخرها:

يا رب واجعل على آثاره طلابة	فهم أعلام هدي للورى ونجوم
ثم الصلاة على النبي محمد مَنْ	قلبه نحو العباد رحيم
وكذا السلام عليه وآله	ما هب في جنح الظلام نسيم

نقلاً من اللطائف الأشعرية ص٧-٩

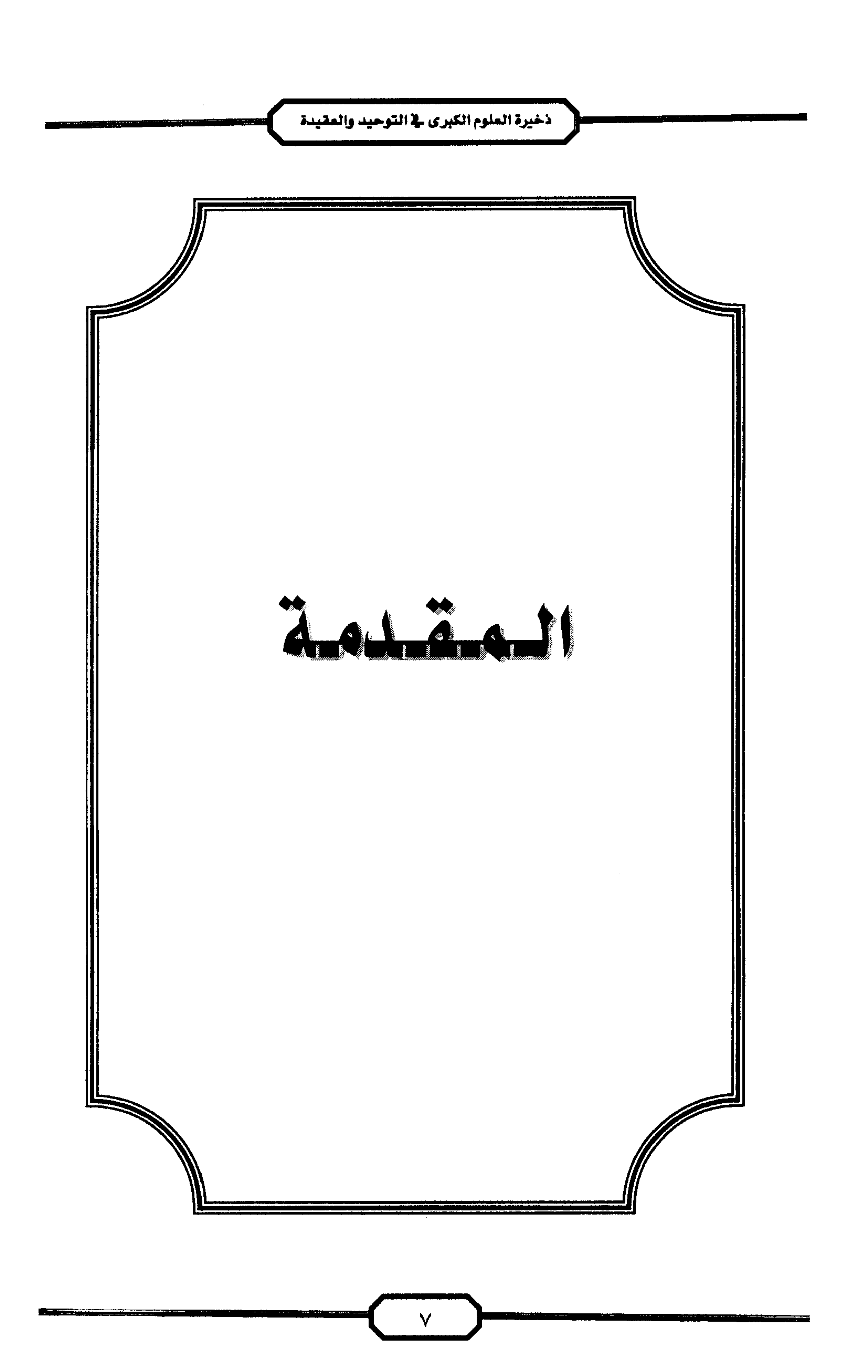
إلا رحمه الله رحمة واسعة وحشرنا في معيتهم وزمرتهم

اللهم صل على سيدنا محمد النور الذاتي والسِّر الساري في سائر الأسماء والصفات وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

كاتبها أسير هواه

مختار عبد اللطيف مختار

* * *



المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدمة المؤلف

الحمد لله الذي جعلَ عِلمَ التّوحيدِ مُنيرًا للقُلُوبِ بالتّسديد، ومُطهِّرًا لها من أدرانِ الشِّرك العنيد، ومُحرِّراً أقطارها من ربق التَّقليد، فيه تصحيح العقائد، وصيانتها من الكُفرِ والإلحادِ، وبه ينهج المُكلَّف طَريقَ العِرفان السَّوِي العتيد، ويتخلَّص من شوائب الرُّعُونات النّفسيَّة، كالرِّياء والعجب السُّمعة.

ثُمَّ الصَّلاةُ والسَّلامُ على مَن قالَ: « طَلَبُ العِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ ومُسْلِمةٍ » ، والقائلُ عند السُّؤال عن أَيِّ الأعمالِ أفضلُ يا رَسُولَ الله؟ قال: المَعرفةُ بالله، كررَّهَا ثلاثًا » ، والقائل: « أَفضَلُ العِبَادَةِ الفِقه، وأَفضلُ الدِّينِ الوَرَعُ » .

والفقه قِسمان :

- **أكبرُ** : وَهُوَ عِلمُ التَّوحيد.
- **وأصغر** : وهُو عِلمُ الفقه الباحث في مسائل العبادات والمعاملات.

هذا، وقد رَوَى البُخارِي ومُسلِم عن النّبي ﷺ أنَّه قال:

« مَن سَلَكَ طريقًا يلتمس به علمًا سَهَّلَ اللهُ له به طريقًا إلى الجنَّة » .

وما وردَ في فضله من الأحاديث والآيات كثيرة. ذكره الإمامُ الغزالي في الجزء الأوَّل، فانظُر إن أردت الإحاطة - وفَّقَكَ اللهُ.

ولا بأسَ هُنا أن نُورِدَ بعضَ الآياتِ النَّازلة في هذا الشَّأن، فمن ذلك: قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ﴾، وقَولِهِ تعالى: ﴿ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾، ومِمَّا ذكرنا يتضحُ فضل العِلمِ، ووُجُوب السَّعْيِ إليهِ.

وبعد:

فيقُول العَبْدُ الفقيرُ إليه تعالى (**الطَّاهر مُحَمَّد سُلَيْمان**) الأشعري عقيدةً، المالكي مذهبًا، الأحمدي البدوي طريقةً، الأدهمي شيخًا ولقبًا:

هذا كِتابٌ في عِلْمِ التَّوحيد، نَظَرْتُ فيه إلى مذهب الإمام أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بِشْر الأشعري رضي الله تعالى عنه، وسمَّيته:

(**ذخيرة العُلُوم الكُبرى**).

واستمددتُه من شرحِ الشَّيخ مُحَمَّد عليش على (كُبرى السَّنُوسيَّة)، وشرحه على (إضاءة الدُّجنة)، وشرحُ السّنوسية كالباجُوري، (والكُبرى) للإمام السنوسي، وشرح الأمير على (محشي الجوهرة)، وأئمة منهم السَّعد والفخر الرازي وإمام الحرمين، والأستاذ الأسفراييني، وشيخنا وعُمدتنا: مُربِّي الطَّالبين والسَّالِكين، الحَبْر العالم، العلاَّمة الإمام في عِلمَى أُصُول الدِّين، وفرعه الشَّيْخ (على إبراهيم أدهم) عَطَّرَ اللهُ ثَرَاهُ، وجَعَلَ الفِردوسَ نُزُلَهُ ومأواهُ، بروايَةٍ عن العالم العلاَّمة الشَّيخ

(محمد ود البدوي) شيخ الإسلام، بروايةٍ عن خاتمة المحُقِّقين، الذي انتهت إليه الرِّئاسة في عُلُوم المعقُول والمنقُولِ، الإمام الشَّيْخ مُحَمَّد عليش، بروايةٍ عن الشَّيخ الحَبْر الأزهري الشّيخ (علي النحلة)، بِروايةٍ عن العالم العلاَّمة الإمام، شيخ الأزهر، وصاحب مُسَلسل عاشُوراء، الأمير الصَّغير، بروايةٍ عن أبيهِ صاحب المجموع، من وَرِثَ العَدوي حالاً ومقالاً، الشَّيخِ مُحَمَّد الأمير الكبير، بروايةٍ عن شيخ العُلَماء وشيخ المشايخ، خليفة الإمام مالك بن أنس، مُحرِّر المذهب المالكي وحافظه، الشَّيخ علي العَدَوِي الصَّعِيدي، بروايةٍ عن شَيخِه شارِح المُدوَّنة الشيخ علي الصَّغير.

ولَهُ -أي للشيخ علي الصَّغير اتصال كُلّ سَنَدٍ في كُلِّ فَنٍّ برسُولِ الله (ﷺ) إلى الإمام الأشعري، وإنَّما اختصرتُ السَّنَد خَوفًا من التَّطويلِ، وبهذا الذي ذكرنا من الأشياخِ نكتفي، رضي الله عنهم أجمعين.



الباب الأول

معرفة الأحكام التكليفية والعادية والعقلية

القسم الأول
الحُكم الشّرعي التّكليفي

هُو كلام الله المُتعلِّق بأفعال المُكلَّفين بالطَّلب أو الإباحة أو الوضع لهما.

وأقسامه خمسة:

الواجب، ويليه المندُوب، فالحرام، والمكروه، فالمُباح.

١ - الواجب:

لُغةً: هو كلامُ الله المُتعلِّق بطلب فعل الشيء طلبًا جازمًا من المُكلَّفين كالصلاة والصوم والزكاة والحج.

وينقسم إلى قسمين، عيني وكِفائي، فالعيني أفضل من الكفائي، ورادف الواجب المُحتَّم والفريضة واللازم.

وفي الاصطلاح: الواجبُ ما يُثابُ فاعلهُ ويُعاقَبُ تارِكُه.

٢ - وأمّا (المندوب):

لَغةً: فهُوَ كلامُ الله المُتعلِّق بطلب فعل الشّيء طلبًا غير جازِمٍ.

وينقسمُ إلى قسمين عيني كالوتر، كِفائي كالإقامة بالنسبة للجماعة، وفي علم الفروع يُسمَّيانِ سُننًا مُؤَكَّدات.

وأمَّا المندُوب في الاصطلاح: فما يُثابُ فاعِلُه، ولا يُعاقَب تارِكُهُ، بل يُلَوَّم.

٣- والمُحَرَّمُ:

لَغةً هو: كلامُ الله المُتعلِّق بطلبِ تَرْكِ الشَّيءِ تركًا جازمًا.

وفي الاصطلاح: ما يُثابُ تارِكَهُ إنْ قَصَدَ الامتثَالَ، وإلاَّ كان خُرُوجًا من العهدة ويُعاقَب أي يُعَذَّب بالنَّارِ فاعله.

وينقسمُ إلى قسمين: كبيرة وصغيرة، فالكبيرة ما ضُبِطت بِحَدٍّ كالزِّنا، أو وَعيدٍ كالرِّبا، أو استخفافٍ بالصَّغيرةِ تنقَلِبُ كبيرةً. والصَّغيرةُ ما لم تُضبَطُ بِحَدٍّ أو وَعِيدٍ.

٤- والمكرُوهُ:

لَغةً هُو: كلامُ اللهِ المُتعلِّق بطلبِ ترك الشَّيءِ تركًا غير جازِمٍ.

وفي الاصطلاح: ما يُثابُ تارِكه إن قَصَدَ الامتِثَالَ، ولا يُعاقَبُ فاعِلُه بَل يُلَوَّم.

٥- والمُباحُ:

لُغةً: هُو ما أَذِنَ الشَّارعُ في فعله وتركه على حَدٍّ سَواء.

وفي الاصطلاح: لا يُثابُ فاعلـه ولا يُعاقب تاركه، إلاَّ إذا قَصَدَ خيرًا فيُثاب على قَصْدِ الخير، أو قَصَدَ بِهِ وَسِيلةً إلى مُحرَّمٍ فَيُعاقَب.

* * *

القسم الثَّاني
الحُكم الشَّرعي الوضعي

وأمَّا الحُكم الشَّرعي الوضعي، فهُو:

كلامُ الله المتعلق بجعل الشيء سببًا أو شرطًا أو صِحَّةً أو مانِعًا أو فسادًا.

والسّبب:

لُغةً هو: ما يتوصل به إلى غيره.

وفي الاصطلاح: ما يلزم من وجوده الوجود ومن عدمه العدم.

كدخول الأوقات والأنصِبة بالنسبة للزكاة. وشهرُ رمضان بالنسبة للصوم، وشوال بالنسبة للحج.

والشرط:

لُغةً هو: العلامة.

وفي الاصطلاح: ما يلزم من عدمه العدم ولا يلزم من وجوده وجود و لا عدم لذاته.

وقيل: هو ما يلزم من وجوده الوجود، ومن عدمه العدم، وإذا انتفت الموانع وتوفرت الأسباب.

والمانع: هو ما يلزم من وجوده العدم ولا يلزم من عدمه وجود كالجنون والإغماء والحيض والنفاس.

ولا يلزم من عدمه وجود، فقد تكون المرأة طاهرة ولكنها غير مصلية وهكذا.

والصحة: هي استيفاء الشروط والأركان.

والثواب: متوقِّفٌ على الإخلاص.

والقبول: متوقف على الامتثال وأكل الحلال.

ذكره الشيخ العَدَوي.

والفساد: يكون باختلال رُكنٍ أو شرطٍ من العبادة.

وهذه الخمسة مضروبات في الخمسة المتقدمة، فالمجموع خمسة وعشرون صُورة.

انتهى السنوسي في المقدمات.

* * *

القسم الثالث
الحُكم العقلي

وأما الحُكم العقلي:

لغةً: فهو القضاء.

وفي الاصطلاح: إثبات أمر لأمرٍ أو نفي أمرٍ عن أمرٍ بلا توقُّفٍ على عادةٍ ولا وَضعِ واضع.

وينحصرُ في ثلاثةِ أقسام، وهي:

١- الواجبُ ٢- والمُستحيلُ ٣- والجائز

١- فأمَّا (الواجبُ) فهو عدمُ قبول الانتفاء.

٢- (والمُستحيلُ) عدم قبول الثُبُوت.

٣- (والجائزُ) ما يقبلُ الثُّبُوت تارةً والانتفاء تارةً.

والواجبُ ينقسمُ إلى ثلاثة أقسام:

الأول: الواجب النظري، وهو ثُبوت القُدرة لله تعالى، وجميع الصفات إجمالاً وتفصيلاً، ويُسمى هذا واجبًا مُطلقًا، أي لثبوته أزلاً وأبدًا.

والثاني: الواجب الضروري وهو كأخذ الجرم قدرًا من الفراغ أي تحيز الجُرمِ وهذا يُسمَّى بواجبٍ مُقيِّدٍ، والمُراد بالوجُوب أي الثُّبُوت.

الثالث: الواجب العرضي، وفي حقيقة نفسه جائز، وهو وجود شيءٍ من المُمكِنات في زمنٍ عَلِمَ الله وجوده فيه.

أما المستحيل فينقسمُ أيضًا إلى قسمين:

الأول: المُستحيل النظري، كنفي الشريك عن الله تعالى، وجميع الأضداد، وهذا يُسمى مُستحيلاً مُطلقًا لنفيه أزلاً وأبدًا.

والمُستحيل العرضي هو: وجود شيء من الممكنات في زمن علم الله بعدم وجودها فيه.

وأمّا الجائزُ فينقسم إلى قسمين:

نظري: وهو لُغةً: إثابة العاصي وتعذيب المُطيع.

وأما شرعًا فيمتنع، فإنَّ المُطيع للجنة والعاصي للنار.

وأما الفاسق فتجوز في حقِّه المغفرة.

والقسمُ الثاني: الجائز الضَّرُوري، وهو اتِّصاف الجرم بخصُوص الحركةِ أو السكون، فهذه ثمانية مضروبات في الإثبات والنفي فالجميع ستة عشر، انتهت أقسام الحُكم العقلي.



القسم الرابع
الحُكم العادي

وأما الحُكم العادي فهو:

إثباتُ أمرٍ لأمرٍ أو نفي أمرٍ عن أمرٍ بواسطة التجربة والتّكرار.

وينقسم إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: ربط وجود بوجود، كربط الشَّبع مع الطَّعام وذلك ربطٌ عاديٌّ، ولا تأثيرَ له، بل التأثير من الله عزَّ وجلَّ.

والقسم الثاني: ربط عدم بعدم ربطًا عاديًا، كعدم الشبع مع عدم الطعام.

والقسم الثالث: ربط وجود مع عدم ربطًا عاديًا كوجود البرد مع عدم الثوب.

والرابع: ربط عدم بوجود، كعدم البرد مع وجود الثوب.

واعلم أنَّ الله خلق الأسباب والمُسبِّبات وربطَ بينها ربطًا عاديًا، فلا تأثير للسبب وللمُسبِّب بل التأثير كله من الله عز وجل.

* * *

البحث الثاني
في أوَّل الواجبات

وللأشاعرة فيه أربعة أقوالٍ:

أشهرها هي: المعرفة بالله ورُسله بالبراهين القطعية.

وقيلَ: الدليل.

وقيل: بعض الدليل.

وقيل: التَّوجُّه القلبي، أي إخلاء القلب بواسطة العُلماء الخُبراء بعلم التوحيد المحفُوظين عن الحَسَدِ والغِلِّ، كما وَرَدَ في كُبرى السنوسي.

وأَمَّا المعرفةُ: فهي الجزمُ بالعقائد الدِّينيَّة جزمًا مطابقًا للواقع، مُقارنًا بدليل ولو إجمالي.

فيخرج بالجزمِ الشّك والظّن والوهم، فمن كان مُتّصِفًا بواحِدٍ من الثلاثة في العقائد الآتية فهو كافرٌ إجماعًا قَلَّدَ أو اجتهَدَ.

وخرج بالمُطابق الجزم الغير مطابق كجزم النَّصارَى بالتَّثليث، وكجزم اليهود، وكُلُّ عقيدةٍ أجمع المُسلمون على فسادها.

فمن كان مُتصفًا بذلك الجزمِ الفاسد في العقائد الآتية فهو كافرٌ إجماعًا، وخرج عن دليل المُقلِّدِ والتقليد.

وأقسامُ ذلك ثلاثة: المُقلَّد، المُقلِّد والتقليد.

أما **(التقليد)** فهو أخذ الشيء من غير دليلٍ، أو الأخذ بقولِ الغير من غير دليلٍ.

(والمُقَلِّد) وهو المُكلَّف الذي انتهت إليه حفظًا كلَّ الواجبات والمُستحيلات والجائزات مما يجب في حقِّ مولانا وما يستحيل وما يجوز.

وكذلك في حقِّ الرسل ولم يكن له دليل في ذلك، هذا حد المُقلِّد.

- وقد اختُلِفَ في صِحَّةِ إيمانه على اثنتَي عشر قولاً.

وقد نقَّحَ ابن عرفة منها ثلاثة أقوال:

القول الأول: كُفر المُقلِّد، وهو للسَّنُوسي في كُبراه، وقال: [ما وردَ في فضلِ النُّطق بالشَّهادتين أكثرُ من سِتِّين حديثًا، فمحمولةٌ على المعرفة النَّاشئة عن دليلٍ] .

القول الثاني: مُؤْمنٌ فاسِقٌ بالعقيدةِ، ولكن ذَكَرَ العَدَوي في جميع حواشيهِ أنَّ شرط الثَّواب معرفة المُثيب، والمعرفةُ لا تكونُ إلاَّ عن دليلٍ، فالمُقلِّد لا ثَوَابَ له إجماعًا.

وقد ذَكَرَهُ المُصنِّف العلامة الدُّسُوقي على محشي السَّنُوسيَّة فقال : [قِيل أنَّ المُقلِّد يُعامل بمُعاملة المُسلمين في الدنيا، ويوم القيامة يَخْلُدُ في النَّارِ ككل من خرَج عن إجماع الأمة، كالمُعتزلةِ وأضرابهم]، انظر الدُّسُوقي.

ثُمَّ قال: [الحاصِلُ أنَّ مَن كانَ شاكًّا أو ظانًّا أو متوهِّمًا أو قلبه خالٍ عن العقائد أو بُعدٍ عن العُلماء الخُبراء فقد أجمع العُلماء على كُفرِهِ إجماعًا، فلا ينفعه نُطقَ الشَّهادتين]، انظُر الدُّسُوقي على شرحِ السَّنُوسيَّة الكُبرى.

أمَّا القولُ الثالث: قيلَ مُؤمنٌ غير عاصٍ، وهذا ضعيفٌ.

وقد علمْتَ أن المشهور أنَّهُ -أي المُقلِّد- فاسقٌ بالعقيدة، يُعذَّبُ على تركِ الدَّليل الجُملي، وهذا بناءً على أنَّ المعرفة واجبةٌ كوجُوب الفروع كالصلاة والصوم والزكاة والحج، وقيل إنَّ الدَّليل يجب وجُوبًا أُصُوليًا، فعليه التَّارِكُ له كافِرٌ.

انتهى من الباجُوري على شرح الجوهرة والسَّنُوسِيَّة.

❊ ❊ ❊

البحث الثالث

بأي شيء تجبُ المعرفة ؟

تجبُ المعرفةُ بالشَّرْع، لكن يُشتَرَطُ العقل، وهذا ما عليه الأشاعرة جميعًا إذ يقُولون: تثبُت جميعُ الأحكامِ أصلاً وفرعًا بالشَّرْع، فقبل بِعثةِ الرُّسُل لا يجب أصلاً ولا فرعًا، لقوله تعالى: ﴿ **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً** ﴾ -.

وعند الماتريدية: تثبُت معرفة الإله بالعقل فقط لوضُوحِها، وأمَّا بقيَّة الأحكام كالتَّكاليف الشَّرعية فتثبُت بالشَّرعِ أي ببعثة الرسُل.

وقالت المُعتزلة: جميع الأحكام تثبت بالعقل فجعلوا العقلَ بمنزلة الرسُول، وتلك فرقةٌ ضالَّةٌ مُضِلَّةٌ أجمع المُسلمون على ضلالتها وعلى فسادها.

وقد ذهبَ عُلماء ما وراء النَّهر إلى كُفرهم وعند الأشاعرة أنّهم يُعاملون بمُعاملة المُسلمين في الدُّنيا، وفي الآخرة في نار جهنَّم خالدين فيها أبدًا.

انتهى الدُّسُوقي على محشي السَّنُوسِيَّة.



البحث الرابع

ما هو التَّكليف

التَّكليفُ: هو إلزام ما فيه الكُلفة .

وقيل: طلب ما فيه الكلفة.

فالطلب يشمل المندوب والمكروه.

وأما الإلزام فيختصر على الواجب والمُحرَّم.

* * *

البحث الخامس

على من تجب المعرفة ؟

تجبُ على الجن والإنس إجماعًا.

فللإنس بالتَّكليف.

وللجنِّ بالخلقة.

وأما الملائكة فإنَّ إيمانهم جِبلي، قال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ .

* * *

البحث السادس
ما شُرُوط المُكلَّف

شُرُوط المُكلَّف خمسة:

الأوَّل (البُلُوغ)، فلا يجب التَّوحيد على صَبِيٍّ، فإن ماتَ قبل البُلُوغ فهو في الجنَّة كأطفال الكُفَّارِ الذين ماتوا قبل البُلُوغ فهُم في الجنَّة.

الثَّاني (العقل)، فَمن جنَّ قبل البلوغ ثُم استمرَّ إلى الموت فهُو في الجنَّة.

وأمَّا إذا جنَّ بعد البُلُوغ وكان له مُهلة تعلُّمه التّوحيد وفَرَّطَ في ذلك فهو غير ناجٍ.

الثَّالث (أن يكون سالمًا لإحدى الحاستين) فمن فقدهما فكالمجنون.

والرَّابع (بلُوغ دعوته ﷺ) أي وصولها إلى السَّمع، فمن تربّي في شاهق جبلٍ أو في جزيرةٍ مقطُوعةٍ عن النَّاسِ ولم يسمع ببلوغ دعوته (ﷺ) فهُو ناجٍ وفي الجنَّة كأهل الفترة، وهو الزمن الخالي عن النُّبُوّة والرّسالة، فهم ناجُون وإن بدّلوا وغيّروا وعبدوا الأوثانَ.

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ .

ومن أجلِّ أهل الفترة (أبويه) ﷺ؛ فهما ناجيان، وفي الجنة، وقد ألَّفَ جلال الدين السيوطي رِسالةً في حياةِ أبويه (ﷺ) وذكر فيها أنَّ الله تعالى

أحيا أبويه ﷺ وآمنا بِهِ، وقد عدَّ جماعةٌ من العُلماء أنّهُما، أي أبويه من الصَّحابة، وهذا الحديث عند علماء الظّاهر ضعيف، لكن ثَبَتَ لدى العُلماء المُحقّقين، ومن يَقُول بضعفه فهُو عن الحقيقة عاري، فَسَلِّم يا أخي تلك مُعجِزة المُختار:

أَيْقَنِتُ أَنَّ أَبَا النَّبِيِّ وأُمَّهُ	أحياهُما الرَّبُّ الكَرِيمُ البارِي
حَتَّى شَهِدا لَهُ بِصِدْقِ رِسَالتِهِ	فَصَدِّقْ فَتِلكَ كَرَامَةُ المُختَارِ
هذا الحَدِيثُ مَنْ يَقُل بِضِعْفِهِ	فهُوَ الضَّعِيفُ عن الحقيقة عاري

وقد استُثْنِي جماعةٌ من أهل الفترةِ منهم حاتم الطَّائي وأَضرابُه، فَهُم في النَّار.

والشَّرطُ الخامس (**أن يكون ممهلاً بعد البُلُوغ**)، بمعنى أن تكون له فترة يتعلم فيها العقائد وذلك بخلاف مَنْ مات إثر بلوغه.

علاماتُ البُلُوغ ثمانية:

ثلاثة مُشتركةٌ بين الرِّجال والنِّساء:

الأولى: خروج المنى، فإنّه مُشتركٌ.

الثّانية: إنبات الشّعر الصّلب في العانة والإبطين.

الثّالثة: بُلُوغ ثمانية عشر حولاً.

ثُم اثنان مُختصّات بالنّساء:

الأوّل: نزول الحيض، اعتيد من ثلاثة عشرة، أو تسعة إلى ثلاثة عشرة إذ قالت النّساءُ الخبيرات فهو حيضٌ وإلاّ فلا.

والعلامةُ الثانية بالنسبة للنّساء (الحَملُ) فيكون عدد ما ذُكِرَ خمسة.

وبَقِيَ ثلاثة هي:

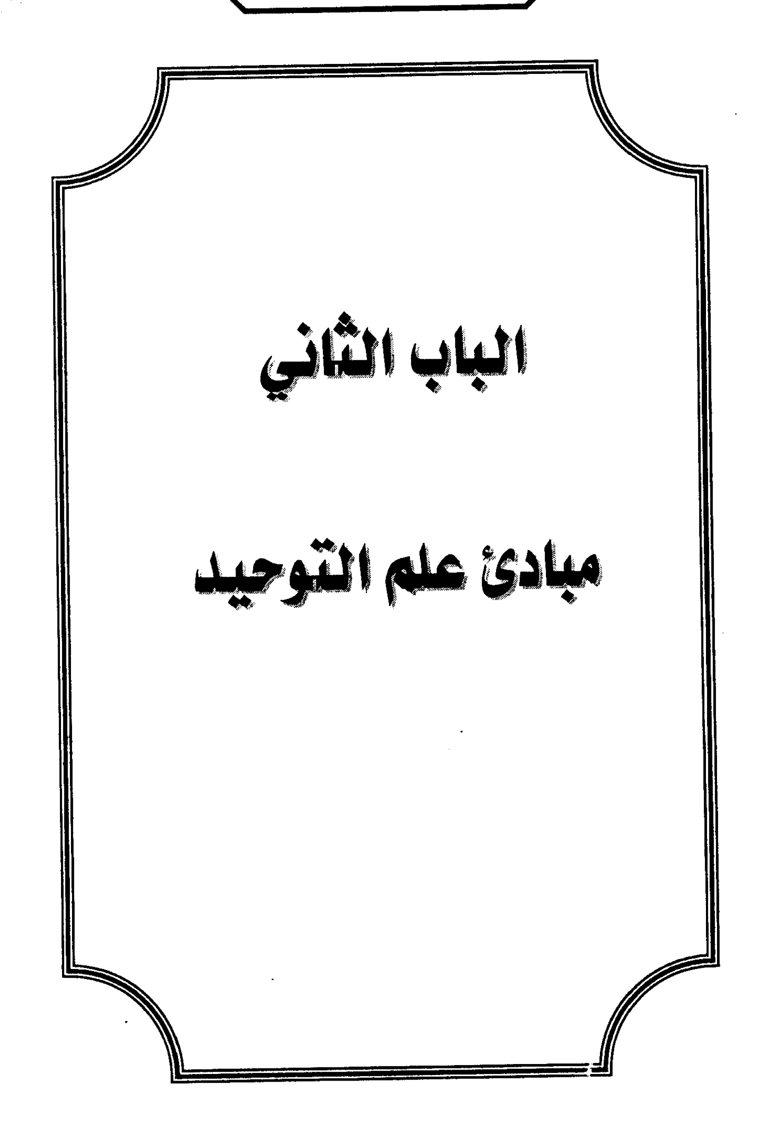
غلظ الصّوت.

وفرك الأرنبة.

والخيط. يجعل على العُنُق مطبُوقًا ثُم يطرح على الرّأس، فإذا نَزَلَ على الرّقبة كان دليلاً على بُلُوغ صاحبه، وإلاّ فلا.

تلك هي المُقدّمات الثّمانية، وقد اختصرَ أغلبُ العُلماء هذه المُقدّمات، وأنّها موصلة لعِلمِ التّوحيد وصُولاً نيّرًا مُضيئًا لعِلمِ التَّوحيد.

* * *



الباب الثاني

مبادئ علم التوحيد

الباب الثاني

مبادئ علم التوحيد

اعلم أنَّ مبادئ التَّوحيد عشرة:

نَظَمَهَا بعضُهم بقوله:

إِنَّ مبَــادِئَ كُــلِّ فَــنٍّ عَــشْرَةٌ ... الحَــدُّ والموضُــوعُ ثُــمَّ الثّمَــرَة

وفَــضلِه ونــسبتِهِ والواضــع ... والاسم والاستمداد حكم الشّارع

مسائلُ والبعض بالبعض اكتفى ... ومَــن درى الجميــع حــازَ الــشَّرَفا

١ - **(والحَد)** في اللُّغة: هو العِلْمُ بأنَّ الشيء واحد.

وفي الاصطلاح: هو العلم باعتبار الفن المُدوَّن القائم ببحث الواجبات والمُستحيلات والجائزات، وباعتبار ما يُؤول إلى القلب من إفراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته ذاتًا وصِفَةً وأفعالاً، أو إثبات ذات غيرِ مُشابِهَةٍ للذّوات، ولا مُعطّلةٍ عن الصّفات، أو كُل ما يخطُر على البال فالله بخلاف ذلك.

٢- ومعنى قوله: **(وموضُوعه)** ذات الله وذات رُسُلِه من حيثُ ما يجب، وما يستحيلُ، وما يجوز، والمُمكن من حيث دلالته على صانعه، والسّمعيات من حيث هي أُمورٌ تعتقد.

٣- (**وثمرته**) معرفة الله تعالى ورُسُلِه بالبراهين القطعية والفوز بالسّعادة الأبديّة.

٤- (**وفضله**) أنّه أفضلُ العُلُوم لأنّه مُتعلِّقٌ بذات الله تعالى ورُسُله.

٥- (**ونسبته**) أصلُ العُلُومِ، وما سِواهُ للتّوحيد فرعٌ.

٦- (**وواضعه**) مجازًا الإمام الأشعري وتابعُوه، وأبو منصُور الماتريدي وتابعُوه.

٧- (**وحُكم الله فيه**) الوجُوب العيني على كُلِّ مُكلَّفٍ.

٨- (**واسمه**) علم التَّوحيد، وعلم الكلام، وعلم كلمة التّقوى وعِلمُ أصل الدِّين، وعلمُ أُصُول الدِّين، وعِلمُ المُكاشَفة، والعِلمُ بالله ورُسُلِه.

٩- (**واستمدادُه**) من الأدلّة العقليّة والنّقليّة.

١٠- (**وقضاياه**) هي المسائل الباحثة عن الواجبات والمُستحيلات والجائزات.

(فمن دَرَى الجميعَ حازَ الشَّرَفا)، وهو شَرَف العِلم، وهو أرفع من شَرَفِ النَّسَبِ، فعن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما: «إنَّ اللهَ تعالى يرفع العُلماءَ فوقَ المُؤمنينَ بسبعمائة درجة، ما بين الدَّرجة والدّرجة كما بين السّماءِ والأرضِ». قال تعالى: ﴿**يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ**﴾ .

(**ومما يجب في حقِّ مولانا عزَّ وجَلَّ عشرون صِفة**):

فَـ(مِـن) للتّبعـيض، والمعنـى ممـا يجـب في حقّـه تعـالى، لأنّ الواجبـات الإجماليّة لا يعلم حصرها إلاّ الله.

قوله (**لمولانا**) أي الذي تولاّنا بنِعمة الإيجادِ والاستمداد.

(**عزَّ**) أي اتَّصَفَ بكُلِّ كمالٍ.

(**وجَلَّ**) تَنَزّهَ عن كُل نقص.

قوله: (**عشرون صِفة**): بناءً على أنَّ القسمة رباعيّة.

(**موجودات**) وعدُّوا منها صِفاتِ المعاني.

(**ومعدومات**) أي تدُل على عدم كذا، وعدّوا منها صِفات السلوب.

(**وأحوال**) أي وسائط، وعدّوا منها المعنويَّة السّبعة.

(**وأُمور اعتباريَّة**) وعدّوا منها الوُجود.

* * *

الوجُود

- فالوجود عند الأشعري عين الموجود، فعليه عُدَّ الوُجود من الصّفات فيه تسامُح: أي تساهل في العبارة.

ويُقال جوابًا: إنّما عدها من الصّفات لأنها من جملة المعتقدات، كما قالوا الله سميع بصير قالوا موجود، وتتلخَّص في ثلاثة عبارات:

١- وهي: أنَّ وجوده سبحانه وتعالى ذاتي، أي ليس ممدُودًا من الغير، ولا أَثَّرَ نَفسُه بنفسه، أي ما خَلَقَ نَفسَه بنفسه.

٢- وثانيهما: أنَّ وُجُودَه واجب أي ثابت لا يقبل الانتفاء...

٣- ثالثهما: وجوده عزَّ وجَلَّ مُطلقًا أي لا يتقيَّد بمكان ولا زمان ولا جِهةٍ.

- وأمَّا عند الفخر الرَّازي: فالوجُود غير الموجود، فعليه كون عدّها من الصّفات لا اعتراض فيه، فقال: الوجود هو الحال الواجب للذّات ما دامت الذّات حال تلك الحال غير مُعلّلة بعِلَّةٍ، ومعنى الحال الواجب للذّات: أي الثّابِت يعني أنَّ ذاته عزّ وجلّ وجودها ثابت أزلاً وأبدًا.

(والأزَل) ما لا أول له وجوديًا كان أو عدميًا.

وقوله: (ما دامت الذّات حال تلك الحال غير مُعلّلة بعِلَّةٍ):

فالمُراد بالعِلَّة: **(التَّوقُّف)** أي ذاته عزَّ وجَلَّ وجودها لا يتوقَّف على

وجود شيءٍ، وليسَ وجودها مُستمدًّا من شيءٍ، انتهى مُلخَّص الفخر الرَّازي.

وقد جَزَمَ المُتأخِّرون أنَّ الوُجودَ صِفةٌ اعتباريَّةٌ يعتبرها المُكلَّف بذهنه.

وقال السَّنُوسِي في كُبراه:

فبالجُملة الذي يجب على المُكلّف اعتقاده أنَّ ذات الله عزَّ وجَلَّ موجودة، وليس الله تعالى كلَّفنا أن نبحثَ عن حالها، أو اعتبارها، أو عين الموجود، أو غير الموجود.

ثُمَّ إنَّ هذه الآثار دالَّةٌ على أنَّ لها مُؤَثِّر، ووقفت العُقُول من وراء ذلك حيرانةٌ، انتهى السّنُوسي.

والوُجود عند الصُّوفيَّة هو: (شُهود) الاستغراق في وحدة الأفعال لله تعالى بأنْ لا يُشاهدون فعلاً لغيره، وذلك ذوقًا لا عِلمًا، وهي كِنايَةٌ عن وحدة الأفعال لله تعالى، ولا يرون مع وجُوده وجود شيءٍ، وهو كِنايةٌ عن الاستغراق أو الفناء .



فصل
صفات السلوب

وإنما سميت سلبية: لأنها دلت على سلب ما لا يليق بالله تعالى.

وهي خمسة صفات كالآتي:

القَدم

وهي كنايةٌ عن سلب العدم السَّابق للوجود.

أو كنايةٌ عن عدم افتتاح الوجُود.

أو كنايةٌ عن عدمِ أولية الوجُود.

فإن شِئتَ قُلتَ: سَلبُ الأولية أو عدم الأوليَّة أو نفي الأوَّليَّة.

* * *

البقاء

البقاء -بالمد- كنايةٌ عن سلب العدم اللاحق للوُجوُد.

أو كنايةٌ عن عدم اختتام الوجُود.

أو كنايةٌ عن عدم آخريَّة الوجُود.

وإن شئت قُلتَ سَلب الآخريَّة أو عدم الآخرية أو نفي الآخريَّة.

* * *

مُخالفته تعالى للحوادث

وهي : عبارةٌ عن سلب الجرمية والعرضيَّة وما يُلازمهما، فليس الله تعالى بجرم ولا بجسم.

ولا يجوز إطلاق كُل من الجرم أو الجسم عليه، فمن قال إن الله تعالى جسم كالأجسام فهو كافرٌ إجماعًا، ومن قال جسمٌ لا كالأجسام ففي كُفره قولان ، والرَّاجح عدم الكُفر.

فبالجُملة كُل ما يخطُر على البالِ فالله تعالى خِلافُ ذلك، فليس اللهُ بِعَرَضٍ يعني أنَّ مولانا عزَّ وجَلَّ لا يَتَّصِفُ بأعراضِ الحوادث، فلا يتصف بحركةٍ ولا سُكُون، ولا اجتماع ولا افتراق، ولا نزول ولا هبوط، ولا سِنَةٌ ولا نَوْمٌ، وليس له جهة.

والجِهات سِتَّةٌ، ليس بالمشرق ولا بالمغرب ولا بالشِّمال ولا باليمين ولا بالفوقِ ولا بالتَّحت.

وليس الله عزَّ وجلّ أمام العرش ولا خلفه ولا عن يمينه ولا شِمالِه ولا من فوقِهِ ولا من تحته.

تنبيه:

وليحذر كُلَّ الحذرِ من قول العامَّة: إنَّ اللهَ تعالى فوقَ العالم، أو العالم تحت الله، أو قولهم: كان الله في كُلِّ مكانٍ أو موجود في كُلِّ الوُجُودِ، فهذه الألفاظ لا يجوز إطلاقها عليه تعالى، وفي مُعتقدها محل خلاف،

فقيل كافر وهو ما ذَهَبَ إليه عُلَماءُ ما وراء النَّهرِ، والرَّاجح الفِسق.

واختُلِفَ أيضًا في مُعتقد الجهة لله على قولين:

أحدهما الفسقُ، وهو الرَّاجح.

وثانيهما الكُفر، وهو لعُلماءِ ما وراء النَّهر، وقيَّده النَّووي بالعامة فقط - انتهى.

ولا يتقيَّد بزمانٍ وهو دورانُ الفَلَكِ، ومن الزّمان الجديدان وهُما النّهار والليل، فليس عند ربّك ليل ولا نهار.

ولا يتقيَّد اللهُ سُبحانه وتعالى بمكانٍ.

والمراد بِهِ الفَرَاغُ الموهُوم.

فذاتُهُ العَلِيَّة لا تَتَّصِفُ بِصِفاتِ الحوادث: أي المخلوقات، فلا يَتَّصِفُ بِصِغَرٍ وهِي قِلَّةُ الأجزاءِ، ولا يَتَّصِفُ بِكِبَرٍ - وهي كَثرةُ الأجزاء.

أو لا يَتَّصِفُ بالأغراض في الأفعال أو الأحكام.

والأغراض جمعُ غرض وهو: الدَّافِعُ والحامل على الفِعْلِ.

والحكم: كإيجاب الصلوات الخمسة وغيرها.



قِيامه تعالى بنفسه

وهي عبارة عن عدم الاحتياج للمحل والمُخصِّص.

فالمعنى : أنَّه عزَّ وجَلَّ ليس بِصِفةٍ قديمٍ، وليس بحادِثٍ.

والمقصُود أنَّهُ ذاتٌ قديمٌ، يعني: إثبات ذات غير مُشابهة للذّوات ولا مُعطَّلة عن الصِّفات.

واعلم أن ذات الله تعالى غنية عن المحل والمخصص.

وأعراض الحوادث تفتقر إلى المحل والمخصص، وأجرام الحوادث تفتقر إلى المخصص دون المحل.

وقسم قائم بذاته العلية، وهي صفاته عز وجل.

* * *

الوحدانية

وهي كناية عن نفي التعدد في الذات والصفات والأفعال، اتصالا وانفصالا.

فتلخص أن **أقسام الوحدانية ثلاثة:**

وحدانية في الذات، ووحدانية في الصفات، ووحدانية في الأفعال.

١ - **فوحدانية الذات** تنفي كمين: الكم المتصل في الذات، والكم المنفصل عن الذات.

والكم في اللغة: هو العدد.

وفي الاصطلاح: (عرض) يقوم بمتصل الأجزاء.

وتصوير: تركب الذات من أجزاء أو تعددها.

ونفيه: ليست الذات العلية مركبة من أجزاء ولا متعددة.

وأما الكم المنفصل عن الذات:

فتصويره: وجود ذات كذاته تعالى.

ونفيه: ليس في الوجود ذات كذاته تعالى.

٢- وأما **وحدانية الصفات** فتنفي كمين: الكم المتصل في الصفات.

وتصويره: وجود صفتان من نوع واحد .

ونفيه: ليس لله تعالى صفتان من نوع واحد، ومثاله كقدرتين فأكثر.

والثاني الكم المنفصل عن الصفات:

فتصويره: ثبوت صفة لغيره كصفاته.

ونفيه: ليس في الوجود من له صفة كصفاته تعالى.

٣- وأما **وحدانية الأفعال** فتنفي الكم المنفصل عن الأفعال إجماعا.

فتصويره: ثبوت فعل لغيره أو مشاركته فيه.

ونفيه: ليس في الوجود ذات مؤثرة معه في فعل من الأفعال.

وأما الكم المتصل في الأفعال، إن صور بالمشاركة فهو منفي.

وإن صور بتعدد الأفعال فهو ثابت، فعليه تكون الكموم ستة.

ومعنى قوله: ليس هناك في الوجود ثبوت فعل لغيره، فليست السكين قاطعة، ولا النار محرقة، ولا الماء مرو، ولا الطعام مشبعا، وإنما الفاعل هو الله.

وهذا رد على الطبيعيين والعليين، قال القطب الدرديري في الخريدة:

فمن يقل بالطبع أو بالعلة ... فذلك كفر عند أهل الملة

ومن يقل بقوة مودعة ... فذاك بدعي فلا تلتفت

فقوله (**فمن يقل بالطبع**) هذا إشارة إلى الطبيعيين القائلين: ينشأ الإحراق من النار، والذبح من السكين، والشبع من الطعام، فقد أجمع العلماء على كفرهم، لخروج هذه الأشياء عن تأثير الله تعالى في عقيدتهم.

وقوله (**والعلة**) هي ما يأتي منها الفعل دون الترك، فيقولون: حركة

الإصبع علة في حركة الخاتم، ويقولون: الله تعالى علة العلل، فيلزم عندهم من حركة الأصبع حركة الخاتم -تعالى الله عما يقولون- فقد أجمع العلماء على كفرهم.

وقوله **(ومن يقل بقوة مودعة)** هذا رد على فرقة المعتزلة القائلين: إن التأثير عن طريق القوة المودعة ففي كفرهم قولان، والراجح عدم الكفر.

والمذهب الرابع: يقولون بالتلازم العقلي، يقولون: إن الله خلق الأسباب والمسببات، وربط بينهما ربطًا عقليا، فصاحب هذا المذهب جهولي جهله مركب بل يجر إلى الكفر.

فالحاصل لا فاعل بالاختيار إلا الله تعالى.

قال صاحب الجوهرة:

فخالق لعبده وما عمل   موفق لمن أراد أن يصل

هذا بيان لعقيدة الأفعال.

واعلم أن مذهب أهل السنة لا يعرف إلا بثبوت أربعة أشياء مخلوقة لله تعالى، ليس للعبد مدخلية فيها:

أولها: (الإرادة) وهي قصد الشيء بالقلب.

ثانيها: (القدرة) وهي القوة التي تحمل العبد من حيز إلى حيز.

ثالثها: (العمل - خيره وشره).

رابعها: (المقارنة) وهي اقتران قدرة العبد مع المقدور.

ثم شرع في رد الطوائف الضالة، فقال:

فليس مجبورًا ولا اختيارًا   وليسَّ كلاً يفعل اختيارا

(فليس مجبورًا)، وهو إشارة إلى مذهب الجبرية القائلين: ليس للمكلف مدخلية في العمل، ما هو إلا كالريشة المعلقة في الهواء، فتهبها الريح حيث شاءت، فسلبوا عنه الإرادة بالكلية، ويقولون إذا كلفناه ظلمناه، فينسبون الظلم لله تعالى - تعالى الله عما يقولون، فقد أجمع العلماء على كفرهم.

قوله **(ولا اختيارا)** فهذا إشارة إلى رد فرقة القدرية القائلين: العبد يخلق أفعال نفسه الاختيارية بقدرة خلقها الله تعالى فيه، ففي كفرهم قولان: فقيل كفار وذَهَبَ إليه عُلماءُ ما وراء النَّهْرِ، واستدلُّوا بأَنَّ المَجُوس كَفَرُوا بإلهين، وقالَ الأشاعرةُ بِعَدَمِ كُفرِهم لأنَّهُم قالوا: أثبت المُعتزلة شيئين لله تعالى: القُدرة والخلق.

ويتلخَّص أنَّ الجبريَّة مثالٌ للدمِ والقدريَّة كالفَرْثِ، وأهلَ السُّنَّة كاللبن ﴿ **وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ** ﴾.

والجبرِيَّةُ أفرَطُوا والقَدَرِيَّةُ فَرَّطُوا: أي قَصَّروُا، والجَبْرِيَّةُ تجاوَزُوا الحَدَّ، وأهلُ السُّنَّةِ هُم الذين أصابُوا الحَقَّ.

قولُهُ **(وليس كُل يفعل اختيارًا)** فهذا تأكيد على ردِّ القَدَرِيَّةِ.

* * *

ثُمَّ شَرَعَ في بَيَانِ الكَسْبِ والاكتسابِ.

فقالَ صاحِبُ الجَوهَرة:

فعندنا للعبد كسبٌ كُلِّفَ بِهِ ولم يَكُـن مُؤَثِّرًا فلتعـرفـا

يعني: أنَّ بيان إجزاء التَّكاليف الشَّرعيَّة يكونُ عن طريق الكسبِ والاكتساب.

وقد اختُلِفَ فيهِ على قولين:

- فقيل يكونُ في إرادةِ العبد، ورُدَّ لأنَّ إرادةَ العبد مخلُوقةٌ لله تعالى.

- والـرَّاجحَ أنَّ الكسبَ والاكتساب يكـونُ مـا بـين قُـدرة العبـد ومقدوره، وهو أمرٌ اعتباريٌّ لا وُجُودَ له في الخارج يعتبره الـذِّهن فقط، وتَمَسَّكُوا بقوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ .

وقوله (**ولم يَكُن مُؤَثِّرًا فلتعرفا**): يعني أنَّ الكَسْبَ والاكتسابَ لا يُؤثِّران في الفِعْلِ، بل هُما أوْهَى من بيتِ العَنكَبُوتِ فليسَ لهما تأثيرٌ.

انتهى مُلخَّصُ الجوهرة.

* * *

فصل

وصل الكلام إلى سِتَّة صِفاتٍ للمولى عزَّ وجلّ:

الأولى نفسيَّة: ألاَ وهِيَ **الوُجُود**.

وسُمِّيَت نفسيَّة لأنَّها دالَّةٌ على نفسِ الذَّاتِ من غير معنى زائدٍ يُرَى.

والخمسَةُ بعدها سِلبيَّةٌ، وهي **القِدَمُ والوحدانيَّة وما بينهما**.

وإنَّما سُمِّيَت سِلبيَّةً:

لأنَّ كُلَّ صِفةٍ منها دالَّةٌ ونافِيةٌ على سِلبِ أمرٍ لا يليقُ باللهِ تعالى.

وأيضًا تُسمَّى نفيية وعدمية.

وليس معنى سِلبية مسلوبة، ولا عدمية بمعنى معدومة، ولا نفيية بمعنى منفية، وإنَّما سِلبيَّة لأنَّها تَدُلُّ على سَلبِ كذا، ونفيية لأنَّها تَدُلُّ على نفيِ كذا.

* * *

فصل

في صفات المعاني

وهي كل صفة قائمة بموصوف موجبة له حكمًا.

وهي سبعة.

وعند الماتريديَّة صِفات المعاني تسعةٌ بزيادةِ التَّكوين والإدراك.

واختلفَ الأشاعِرةُ فيهما على قولين:

أشهرهما أنَّ التَّكوين يَرْجِعُ إلى القُدرةِ والإرادة، والإدراك يرجع إلى العِلمِ.

وقد سُئِلَ الماتريديَّة عنِ التَّكوين، فقالُوا: عندنا صِفةٌ قديمةٌ يتأتّى بها إيجادُ كُلِّ مُمكِنٌ وإعدامه.

فقال لهم الأشاعرة: فما وظيفة القُدرة؟.

فقالوا: إنَّما تُهَيِّئُ المُمكِن للوُجودِ والعَدَمِ.

فقالَ لهُم الأشاعرةُ: إنَّ المُمكِنَ قابِلٌ للوُجُودِ والعَدَمِ.

فالرَّاجِحُ أنَّ التَّكوينَ يَرْجِعُ إلى القُدرةِ والإرادة، والإدراك يرجع إلى صفة العلم.

وجُملة صِفات المعاني لدى الأشاعرةِ سبعة أوَّلُها:

القُدرة

وهِيَ صِفَةٌ وُجُودِيَّةٌ قديمةٌ باقيةٌ قائمةٌ بذاتِه العَلِيَّةِ يتأتّى بها إيجاد كُلِّ ممكن وإعدامه، إشارةً إلى تَعلُّقِها الصَّلُوحِي القديم قبل وجودنا لا لتَعَلُّقِها التَّنجيزي الحادث، وهو الإيجاد والإعدام بالفِعلِ.

فتحصل أنّ القدرة لها تَعَلُّقان من بابِ الإجمال الأوَّل الصّلُوحي القديم. والثَّاني التَّنجيزي الحادث.

وأمّا من بابِ التَّفصِيل فلها سبعةُ تعلُّقات:

الأوَّل: الصّلُوحي القديم، وهي صلاحيتها للإيجاد والإعدام قبل وجودنا إذا قدر ممكن.

الثَّاني: كون الممكن قبل وجوده تحت قبضة القُدرة. بمعنى إن شاء تعالى أبقاه على عدمه، وإن شَاءَ أوجده بها، وهذا من ضِمن أقسام تعلُّقاتِ القبضة.

ثالثها: إيجاد الله تعالى الشَّيء بالفِعْلِ، وهذا من ضِمن أقسام التَّعلُّق التَّنجيزي الحادث.

رابعها: كون المُمكن بعد وجُودِه تحت قبضةِ القُدرة، بمعنى إن شاءَ الله تعالى أبقاه على وجوده، وإن شاءَ أعدمه بها، وهذا من ضِمنِ أقسامِ تعلُّقات القبضة.

خامسها: إعدامُ الله الشَّيْء بالفِعلِ، وهذا من ضِمن أقسام تَعَلُّقاتِ التَّنْجِيزي الحادث.

سادسها: كون الممكن بعد إعدامه تحت قبضة القدرة، بمعنى إن شاء الله أبقاه على عدمه، وإن شاء أوجده بها. وهذا من ضمن أقسام تعلقات القبضة.

سابعها: إيجاد الله الشيء بالفعل بها عند البعث، وهذا من ضمن أقسام تعلقات التنجيزي الحادث، وسكتوا عن تعلقها بالشيء من بعد ذلك وبصرف النظر عن الأدلة الواردة في ذلك، وهو كون الممكن تحت قبضة القدرة، فإذا ضم هذا للأوائل فتكون التعلقات ثمانية.

قوله: (**يتأتي بها فعل كل ممكن**): فخرج بالممكن الواجب والمستحيل، فإنها لا تتعلق بهما لا إيجادا ولا إعداما، لأنها -أي القدرة- لو تعلقت بالواجب إيجادا للزم تحصيل الحاصل، ولو تعلقت بالواجب إعداما للزم قلب الحقائق.

وللزم القدرة أن تعدم القدرة، وهذا مستحيل عقلا وشرعا ونقلا، وكذا لو تعلقت القدرة بالمستحيل إعداما للزم تحصيل الحاصل، ولو تعلقت به إيجاد للزم قلب الحقائق، وعدم تعلق القدرة بالواجب والمستحيل لا يعد عجزا، لأنه ليس من وظيفتها أن تتعلق بواجب ولا مستحيل، وكذا لا تتعلق القدرة والإرادة بعدم ذاتي لأنها لو تعلقت به

للزم وجودنا في الأزل وذلك مستحيل، ويؤدب من قال إن الله لا يقدر أن يتخذ ولدا، وذلك لما فيه من إيهام العجز عليه. والجواب بأن تقول الولد في حقه مستحيل، والقدرة لا تتعلق بالمستحيل.

تنبيه:

إن الله تعالى قادر أن يخلق أبلغ وأبدع من هذا الوجود أضعافًا مضاعفة.

* * *

الإرادة

هي صفة وجودية قديمة باقية قائمة بذاته العلية، تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه على وفق العلم.

وقوله (**تخصص الممكن**) هذا إشارة إلى تعلقها التنجيزي القديم بالممكن، والمراد بالتخصيص التميز لا لتعلقها الصلوحي القديم، وهي صلاحيتها للتخصيص، وثالثهما تنجيزي حادث.

فتلخص أن الإرادة لها ثلاث تعلقات:

الأول: تنجيزي حادث.

الثاني: صلوحي قديم.

الثالث: تنجيزي قديم.

وهو تخصيصها المُمكِنات.

وقوله (**ببعض ما يجوز عليه**)، هذا إشارةٌ إلى المُمكنات السِّتَّة التي تُقابلها سِتَّة نَظَمَهَا بعضهم بقولِهِ:

المُمكِناتُ المُتقابِلات	وُجودنا والعدم والصِّفات
أزمنةٌ أمكِنةٌ جِهات	كَذا المقادير روى الثِّقات

قولُهُ: (**المُتقابلاتُ**) كالوُجود يُقابله العدم، والبياضُ من الصِّفات يُقابله السَّواد.

والأزمنة: كزمان سَيِّدنا موسى أو زمان سَيِّدنا عيسى بن مريم يُقابله زمان سَيِّدنا مُحَمَّد (ﷺ).

والمكان: فإنَّ مكان مصر بخِلافِ مكان تُونُس.

والجِهاتُ: فالمَشْرِقُ يُقابله المغرب، واليمين يُقابله الشِّمال، والفَوق يُقابله التَّحتُ.

(**كذا المقادير**): فإنَّ الطول يُقابله القِصَرُ.

(**رَوَى الثِّقاتُ**): أي: العُلماء.

واعْلَمْ أنَّ الأمْرَ والإرادةَ مُتغايرانِ ومنفكان، وكذلك الرِّضاء، فقد يُريدُ ولا يأمُر به، بل ينهَى عنه كالكُفرِ في حَقِّ الكُفَّار، فإنَّهُ أراده ولم يأمر به، بل نَهَى عنه، وقد يأمُر بالشَّيْءِ ولا يُرِيده لهم، وقد يأمر بالشَّيءِ ويُريده، كإيمانِ مَنْ عَلِمَ اللهُ إيمانَهُ.

فتحصل أنَّ الأقسامَ أربعةٌ.

أمَّا قوله: **(وغايرت الرِّضاء)** يعني: أنَّ الرِّضاء يُغايرُ الإرادةَ، والمُراد بالرِّضاء قَبُول العِبادات، ثُمَّ الإثابة عليها، ومُجازاة أصحابها بدُخُول الجنَّة، وكذلك الإرادة تُغاير العِلْم.

وهذا رَدٌّ على المُعتزلة القائلين الإرادةُ عين العِلم، وكون الإرادة تُغاير الرِّضاء ردًّا على (الجبَّائي) القائل إنَّ الإرادة عينُ الرِّضاء، وتُغايرُ الأمرَ ردًّا على المُعتزلةِ القائلين إنَّ الأمرَ والإرادةَ مُتَّحِدانِ ولا ينفكَّانِ بقولِهم: إنَّ الشُّرُورَ والقبائحَ لا يُريدها الله، ويقُولون: إرادةُ الشَّرِّ شَرٌّ، وإرادة القبيح قبيحٌ، فردّهم أهل السُّنَّة.

هذا بالنِّسبةِ للمخلُوقين، وأمَّا بالنِّسبة لمولانا فهذا تصريفٌ في مُلكِهِ عزَّ وجَلَّ.

وقد كان (الجبَّائي) وهُو إمامُ المُعتزلة يدرُسُ في ذاتِ يومٍ داخِلَ مسجد دمشق، فدَخَلَ عليه الأُستاذُ الأسفراييني وقَعَدَ وراءَه فقالَ الجبَّائي: «سُبحان من تنزَّهَ عن الفَحْشاءِ» -كلمة حق أراد بها باطلاً-، المعنى: سُبحانَ مَن لا يَخْلُقُ الشُّرُورَ والقبائِحَ، هذا مقصُود الجبَّائي.

فرَدَّ عليه الأُستاذُ الأسفراييني: سُبحانَ مَنْ لا يَقَعُ في مُلكِهِ إلاَّ ما يشاء.

فعلم الحاضرون أن في المجلس مناظرة.

فقال الجبائي: أيشاء أن يعصى ربنا ؟ .

فقال له الأستاذ الأسفراييني: أيعصى ربنا قهرا؟.

فقال الجبائي: أرأيت إن منعني الهدى، وقضى علي بالردى -أي العذاب-، أأحسن إلي أم أساء ؟.

فقال الأسفراييني: إن منعك ما هو لك فقد أساء، وإن منعك ما هو له؛ فيختص برحمته من يشاء.

فبهت الجبائي، ولم يستطع جوابا بعد ذلك، فكأنما ألقمه الأسفراييني - رحمة الله عليه- حجرا.

* * *

الحياة

وهي صفة وجودية قديمة باقية قائمة بذاته العلية.

تصحح لمن قامت به الاتصاف بجميع الصفات.

ولا تعلق لها عند المتأخرين.

* * *

السمع والبصر

وهما صفتان لله تعالى موجودتان قديمتان باقيتان قائمتان بذاته تعالى.

لهما ثلاثة تعلقات:

- تنجيزيان قديمان بذات الله وصفاته.

- وصلوحيان قديمان قبل وجودنا بذواتنا وصفاتنا على تقدير ممكن.

- وثالثهما تنجيزيان حادثان بذواتنا وصفاتنا بعد وجودنا بالفعل.

واعلم أن السمع يتعلق بالمسموعات والمبصرات.

وكذلك البصر يتعلق بالمبصرات والمسموعات.

والفرق بينهما من مواقف العقول.

* * *

الكلام

هو صفة وجودية قديمة باقية قائمة بذاته تعالى، ليست بحرف ولا صوت، ولا بمد ولا قصر، ولا بإعراب ولا بلحن ولا بصحة ولا بفساد.

يتعلق بجميع الواجبات والجائزات والمستحيلات تعلقا تنجيزيا قديما.

واعلم أن صفة الكلام واحدة ولكنها تتنوع باعتبار متعلقها:

فإن كان تعلقها بالأمر يسمى أمرا.

وبالنهي يسمى نهيا.

وبالخبر يسمى خبرا.

وبالاستخبار يسمى استخبارا.

وبالوعيد يسمى وعيدا، وبالوعد يسمى وعدا.

وعند الأشاعرة الكلام باعتبار الأمر والنهي صلوحيان قديمان بالأمر والنهي قبل وجودنا على تقدير ممكن.

وتنجيزيان حادثان بعد وجودنا بالفعل.

واعلم أن هذه الصفة القديمة لها إطلاقان: كلام الله والقرآن.

فتسميتها بكلام الله لقيامها بذاته تعالى.

وتسميتها بقرآن لأن القرآن أصلا مأخوذ من القرن وهو الجمع، ولأن تعلق هذه الصفة بجميع الواجبات والجائزات والمستحيلات.

وأما الألفاظ التي تقرأها صباحا ومساءا، والتي نزلت على رسول الله (ﷺ) أيضًا فلها إطلاقان: قرآن، وكلام الله.

وإنما سميت قرآنا لأن الله تعالى جمع فيها معاني الكتب السماوية.

وتسمى كلام الله لأن الذي تولى إيجادها في اللوح المحفوظ هو الله.

انتهى ملخص الباجوري.

وقال العلامة السنوسي: واعلم أن القرآن يدل على الصفة القديمة.

وقال الباجوري: المعنى أي باعتبار الدلالة العرفية المطابقية.

فمدلول القرآن والتوراة والإنجيل والزبور باعتبار الدلالة العرفية المطابقية يدل على مثل مدلول الصفة القديمة، فعن السيدة عائشة رضي الله عنها: قالت: (ما بين دفتي المصحف كلام الله...).

قال الباجوري: أي خلقه الله في اللوح المحفوظ.

انظر: ملخص الباجوري.

* * *

العلم

وهو صفة وجودية قديمة باقية قائمة بذاته.

تتعلق بجميع الواجبات- أي ذات الله وصفاته- .

وجميع المتسحيلات، أي بأن يعلمها منفية لا وجود لها.

وبجميع الجائزات كليات وجزئيات مجملة ومفصلة وأنفاس أهل الجنة وأنفاس أهل النار، وكل ذلك بتعلق تنجيزي قديم.

والدليل على العلم: وجود هذا العالم من جهة حدوثه.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾ ...

* * *

فصل
الصفات المعنوية

ثم يجب لله تعالى سبع صفات تسمى صفات معنوية، وهي ملازمة للسبع الأول وهي:

١ - كونه تعالى قادرا:

عند الفخر الرازي: صفة ثبوتية حال ملازمه للقدرة لا تنفك عنها.

وعند الأشاعرة: كناية عن قيام القدرة بالذات.

٢ - وكونه تعالى مريدا:

عند الفخر الرازي: صفة ثبوتية حال ملازمة للإرادة لا تنفك عنها.

وعند الأشاعرة: كناية عن قيام الإرادة بالذات.

٣ - كونه تعالى حيا:

عند الفخر الرازي: صفة ثبوتية حال ملازمة للحياة لا تنفك عنها.

وعند الأشاعرة: كنايةٌ عن قيام الحياة بالذّات.

٤ - كونه تعالى عالمًا:

عند الفخر الرّازي: صفةٌ ثُبُوتيةٌ حال مُلازمةٌ للعِلمِ لا تنفكُّ عنه.

وعند الأشاعرة: كنايةٌ عن قيام العِلم بالذَّاتِ.

٥- كونه تعالى سميعًا:

عند الفخر الرّازي: صِفةٌ ثُبُوتِيَّة حال مُلازمةٌ للسَّمعِ لا تَنفكُّ عنه.

وعند الأشاعرة: كنايةٌ عن قيام السَّمعِ بالذَّاتِ.

٦- كونه تعالى بصيرًا:

عند الفخر الرَّازي: صِفةٌ ثُبوتيَّة حال مُلازمةٌ للبَصَرِ لا تَنْفكُّ عنه.

وعند الأشاعرة: كنايةٌ عن قيام البصر بالذّات.

٧- كونه تعالى مُتكلِّمًا:

عند الفخر الرَّازي: صِفةٌ ثُبُوتيَّة حال مُلازمةٌ للكلامِ لا تَنْفكُّ عنه.

وعند الأشاعرة: كنايةٌ عن قيام الكلامِ بالذَّات.





الباب الثالث

المُستحيلات

الباب الثالث

المُستحيلات

ومِمَّا يُستحيلُ في حقِّهِ تعالى عشرون صِفةً، وهي أضداد العشرين الأول.

العدم:

فالتَّقابُل بينهما أي العدم وبين الوجُود كالتَّقابُلِ بين الشَّيْءِ ونقيضهِ، فإنَّ تقابُل الوجود لا وجُود، فيَصدُقُ بالعدمِ، وهو عدمُ وجُود الشَّيْءِ أصالةً، وهو مستحيلٌ في حقِّهِ تعالى.

الحُدُوث:

فالتَّقابُل بينه أي الحدوث وبين القِدم كالتّقابل بين الشّيء ونقيضه، فإنَّ تقابُل القِدم لا قِدَم، فيَصدُقُ بالحُدُوث، وهو وُجود الشّيءِ بعد عدمه أو التَّجدُّد، وهو مُستحيلٌ في حقِّهِ تعالى.

الفناءُ:

فالتَّقابُل بينه أي بين البقاء كالتّقابل بين الشّيء ونقيضه، فإنَّ تقابُل البقاء لا بقاء، فيَصدُقُ بالفناء، وهو طُرُوء العدم، وذلك مُستحيل في حقِّهِ تعالى.

المماثلة للحوادث:

فالتَّقابُل بينها، أي المماثلة للحوادث وبين المخالفة للحوادث كالتّقابل بين الشّيء ونقيضه، فإنَّ تقابُل المخالفة لا مخالفة، فتصدُقُ بالمماثلة، وهي مُستحيلةٌ في حقِّهِ تعالى كالجرمية والعرضية وما يلزمهما.

الاحتياج للمحل والمُخصِّص:

فالتُّقابُل بينه وبين القيام بالنَّفس كالتّقابل بين الشّيء ونقيضه، فإنَّ تقابُل القيام بالنفس لا قيام، فيَصدُقُ بالاحتياج إلى المحل والمخُصِّص، وهو مُستحيلٌ في حقِّهِ تعالى.

التَّعدُّد في الذات والصِّفات والأفعال:

فالتُّقابُل بينه أي التَّعدُّد وبين الوحدانية كالتّقابل بين الشّيء ونقيضه، فإنَّ تقابُل الوحدانية لا وحدانية، فيَصدُقُ بالتَّعدُّد في الذّات والصِّفات والأفعال، وهو مُستحيلٌ في حقِّهِ تعالى.

العجز:

فالتُّقابُل بينه أي العجز وبين القدرة كالتّقابل بين الشّيء ونقيضه، فإنَّ تقابُل القدرة والعجز لا قدرة، فيصدق بالعجز، وهو مُستحيلٌ عليه عزَّ وجلَّ، والعجزُ أمرٌ وجُوديٌّ يَضَادُّ القُدرة.

الكراهة:

فالتُّقابُل بينها وبين الإرادة كالتّقابل بين الشّيء ونقيضه، فالكراهية أمرٌ وُجُودِيٌّ يُضَاد الإرادة.

الجهل:

فالتُّقابُل بينه وبين العلم كالتّقابل بين الشّيء ونقيضه، فالجهلُ أمرٌ وجوديٌّ يضاد العِلم.

الـمـوت:

فالتُّقابُل بينه وبين الحياة كالتّقابل بين الشّيء ونقيضه، فالموت أمرٌ وجوديٌّ يضاد الحياة.

الـصَّـمـم:

فالتُّقابُل بينه وبين السَّمع كالتّقابل بين الشّيء ونقيضه، فالصّمم أمرٌ وجوديٌّ يضاد السَّمع.

الـعَمَـى:

فالتُّقابُل بينه وبين البصر كالتّقابل بين الشّيء ونقيضه، فالعَمَى أمرٌ وجوديٌّ يضاد البَصَر.

الـبـكـم:

فالتُّقابُل بينه وبين الكلام كالتّقابل بين الشّيء ونقيضه، فالبكم أمرٌ وجوديٌّ يضاد الكلام.

وكُلُّ أضداد الصِفات المعنويَّة الواجبة في حقِّ الله تعالى السَّبعة تُؤخَذ من هذه، وهي:

١ - كونه عاجزًا تضاد كونه قادرًا.

٢ - وكونه مكرهًا تضاد كونه مريدًا.

٣- وكونه جاهلاً تضاد كونه عالمًا.

٤- وكونه أعمى تضاد كونه بصيرًا.

٥- وكونه أصم تضاد كونه سميعًا.

٦- وكونه أبكم تضاد كونه متكلماً.

* * *

الجائز في حقّه تعالى

وأمَّا الجائِزُ في حقِّه تعالى ففعلُ كُلِّ مُمكِنٍ أو تركه.

فمن الجائز بعثة الرُّسُلِ، وإنزال الكُتُبِ، وفِعْلُ الصَّلاح والأصلح واللُّطف والإيمان والإعانة والثَّواب والعِقاب، فلا يجبُ عليه شيءٌ من المُمكِنات ولا يستحيل.

وفي هذا رَدٌّ على فِرَقٍ ضالَّةٍ منها المُعتزلة القائلة: يجب على الله فعل الصَّلاح والأصلح واللُّطفَ والإعانة وبعثة الرُّسُلِ، فقد أساءَ هؤلاء الأدب مع الله عزَّ وجَلَّ وليس المُراد بالوُجوب تسلُّط الغير على الله تعالى وإلاَّ كان كُفرًا صريحًا، وإنَّما المُرادُ بالوُجُوبِ في قصدهم أنّ سُنن الكون تقتضي ذلك.

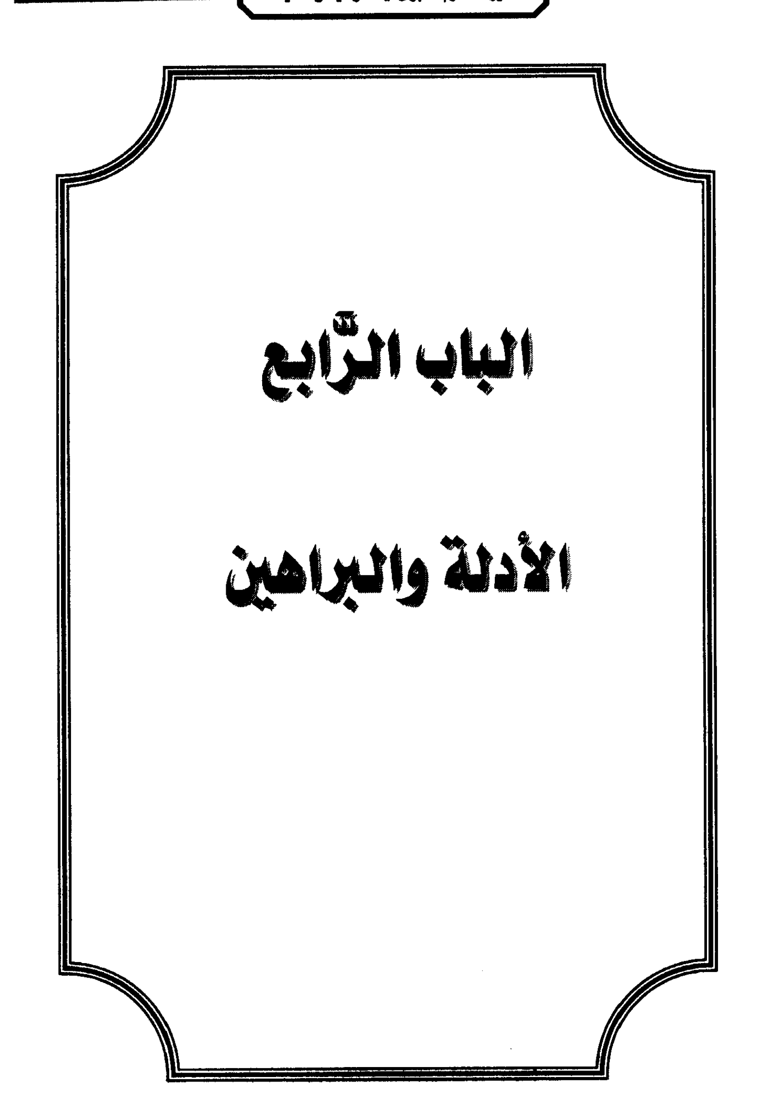
وقالت فِرقةٌ منهم: هذه الأشياء إيجابٌ على الله، وهذا كُفرٌ صريحٌ.

وقالت البراهمة: بعثة الرُّسُل عبث.

وقالت فرقةٌ في الهِند: بعثة الرُّسُلِ مُستحيلةٌ، والصَّلاةُ مُنكَرَةٌ، ويجُوزُ وطء المحارِمِ، ولا يجُوز ذبحُ البهائم لما فيها من التَّعذيب، فأجمعَ العُلماءُ على كُفرِهم على حدٍّ سَواء.

أمّا من يقُولُ فعل الصَّلاحِ واجبٌ على الله فقد أساءَ الأدبَ.





الباب الرّابع

الأدلة والبراهين

الباب الرّابع
الأدلة والبراهين

وأمّا بُرهانُ وجُوده تعالى :

فاعْلَم أوّلاً أنَّ معنى البُرهان مأخوذٌ من البره، وهو بياضُ الوجه.

وكلمتي البُرهان والدَّليل بمعنى واحدٍ.

وهو- أي الدَّليل- ينقسمُ إلى قسمين: حملي وشرطي.

والحملي مُركَّبٌ من قضيتين صُغرى وكُبرى، والكُبرى مركَّبةٌ من هيولتين: كُبرى وصُغرى.

أمّا الدَّليل الشَّرطي فمركَّبٌ من ثلاثة أقيسة وثلاثة أداة استثناء ونتيجة.

ثُمَّ إنَّ الدَّليلَ في حدِّ نفسه ينقسم أيضًا إلى قسمين:

سمعي وهو للسَّمع والبصر والكلام.

وعقلي وهو لجميع الصِّفات.



بُرهان الوُجُود

اعْلَمْ أنَّ الدَّليلَ الحملي مُركَّبٌ من قضيتين:

- **صُغرى**: وهي أن تقول: وأمَّا بُرهانُ وجوده تعالى فحدُوث العالم، لأنَّه لو لم يكن له مُحدِث أي مُوجِد بل حَدَثَ بنفسِهِ أي أوجَدَ نفسَهُ لزِمَ من ذلك اجتماعُ الأمرين اللذين هما الوُجُود والعدم، ولَزِمَ أن يكون الوجُودُ مُساويًا للعدم راجحًا عليه مُرجّحًا بلا سبب، وهو لا يُعقَل كما في كَفَّتَيْ الميزان، فما أدَّى إليه وهو حدُوث العالم بنفسه فهو باطلٌ.

وأمَّا التَّقريرُ فهو مُركَّبٌ من هيولتين، فالهيولة الأولى، بأن تقول: فأمَّا دليلُ حدوث الأجرام فمُلازمتها للأعراض الحادثة، وكل ما لازم الحادث فهو حادث فينتج أن الأجرام حادثة.

وأما حدوث الأعراض: فهو أيضًا مركب من هيولتين.

بأن تقول دليل حدوث الأعراض مشاهدتها تغيرها وكل ما كان كذلك فهو حادث.

- **النتيجة الكبرى:**

أن الأجرام والأعراض حادثان، وكُلُّ حادثٍ لابُدَّ له من مُحْدِث، فالنَّتِيجةُ الأجرام والأعراض لابُدَّ لها من مُحدِث فمُوجِدُها هو الله عزَّ وجَلَّ.

والدَّليلُ على ذلك إخبار الرُّسُل عليهم أفضلُ الصَّلاة والسّلام.

واعْلَم أنَّ حُدُوث الأجرام يكون بأربعة شروُطٍ:

الأوَّل: إثبات زائد على الجرم، وهو العرض.

الثَّاني: بُطلان قيام العرض بنفسه.

الثَّالث: عدمُ انفكاك العرض عن الجرم.

الرَّابع: عدم انتقال العرض من حيِّز إلى حيِّز.

وأمَّا دَّليلُ حدُوث الأعراض، فبشروط ثلاثة:

أوَّلها: عدم كمون الحركة في السّكُون.

ثانيها: بُطلان حوادث لا أوَّل لها.

ثالثها: بُطلان حوادث قديمة بالنوع حادثة بالجِنس، فقال بعضُهم:

زِيدَ ما قَام مَا انتقَل ما كمن

ما انفك لا عَدَمَ لقديم لاحنا

* * *

بُرهان وجُوب البقاء

وأمَّا بُرهانُ وجُوبِ بقائِهِ تعالى:

فلأنَّه لو لم يكُن باقيًا لكان فانيًا، لكن كونه فانيًا مُحال. إذ لو كان فانيًا لانتفى قِدَمُه، لكن انتفاءُ قدمه محالٌ للزوم الدّور أو التَّسَلسُل وهُما محالان، فما أدَّى إليه وهُو عدمُ اتِّصافه بالبقاء محالٌ، فَثَبَتَ اتِّصافُهُ بالبقاء، وانتفَى ضِدّه وهو الفناءُ.

***

بُرهان وجُوب مُخالفته تعالى للحوادث

وأمَّا بُرهان وجُوب اتِّصافه تعالى بالمُخالفة للحوادث:

فلأنَّه لو لم يكُن مُخالفًا للحوادث لكان مُماثِلاً لها، ولانتفى قِدَمُهُ وبقاؤهُ، ولكن انتفاء قِدَمُهُ وبقاؤه مُحالٌ، فما أدَّى إليه وهو انتفاء المُخالفة عنه مُحال، فَثَبَتَ اتِّصَافُه بالمُخالفة وانتفَى ضِدُّها وهي المُماثلة.

***

بُرهان وجُوب القِدَم

بُرهان وجُوب قدمه تعالى:

لو لم يكُن قديمًا لكان حادثًا، لكن كونه حادثًا مُحال، إذ لو كان حادثًا لافتقَرَ إلى مُحْدِثٍ.

لكن افتقارُه إلى مُحدِثٍ مُحال، لأنَّه لو افتقرَ إلى مُحْدِثٍ للزِمَ الدّور أو التَّسَلسُل وهُما مُحالان.

الدّور عبارة عن أن يُوجِد زيد عمرًا، ثُمَّ عمرو يُوجِد زيدًا، فكُلٌّ منهما وجُوده مُتوقِّفٌ على الثَّاني، فيلزم تقديم وتأخير في آنٍ واحدٍ لكُلٍّ منهما وهو باطِلٌ.

وأمَّا التّسَلسُل فهو عبارة عن وُجود حوادث في جانب الماضي لا أوَّلَ لها وهو باطلٌ، فالدّورُ والتَّسَلسُلُ مُحالان.

فما أدّى إليهما وهو انتفاء القِدم عنه مُحال، فثَبَتَ اتِّصافُهُ بالقِدمِ وانتفى ضِدُّه وهو الحُدُوثُ.

* * *

بُرهان وجُوب قيامه تعالى بنفسه

وأمّا بُرهان هذه الصِّفة:

فإنَّهُ لو لم يَكُن قائمًا بنفسِه لكان صِفة، لكن كونه صِفة مُحال، إذ لو كان صِفَةً لما اتَّصَفَ بصِفاتِ المعاني ولا المعنويَّةِ، وعدَمُ اتِّصافِهِ بالمعاني والمعنويَّة مُستحيلٌ، فَمَا أدَّى إليه وهُو كونُهُ صِفة مُحالٌ، فثبَتَ أنَّهُ عزَّ وجَل ذات موصُوف بالصِّفات.

وإنَّ احتاج إلى مُخصِّص لكان حادثًا لكن كونه حادثًا مُحال، إذ لو كان حادثًا لانتفَى وجُوب قِدمه وبقائِهِ، وقد سَبَقَ أنَّ انتفاء القِدم والبقاء عنه من المُحال، وذلك للزوُم الدَّور أو التَّسَلْسُل، فَما أدَّى إليه كونُه حادثًا مُحال، فَثَبَتَ أنَّهُ قديمٌ ...

* * *

بُرهان وجُوب الوحدانيَّة

وأمّا بُرهان وُجُوب وحدانيته تعالى:

فإنَّهُ لو لم يكُن واحدًا في ذاتِه وصِفاتِه وأفعاله لما أوجَدَ شَيئًا من العالم، ولكن عدمُ وجود شيء من العالم باطِلٌ لمُشاهدة هذا العالم عند كُلِّ عاقلٍ، فَمَا أدَّى إليه وهُو عدمُ اتِّصافه بالوحدانيَّة من المحال.

فثَبَتَ اتِّصافُهُ بالوحدانيَّة ذاتًا وصِفةً وأفعالاً، وانتفى ضِدُّها وهو التَّعدُّد في الذَّاتِ والصِّفات والأفعال اتِّصالاً وانفصالاً .

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ .

* * *

بُرهان وجُوب اتصافُهُ بالقُدرة

وأمَّا بُرهانُ وجُوب اتِّصافُهُ بالقُدرةِ:

فإنَّه لو لم يكُن قادرًا لما كان هذا العالم، وعدم وُجُود هذا العالم باطِلٌ لمُشاهدته عند كُلِّ عاقلٍ، فما أدَّى إليه وهُو انتفاءُ القُدرةِ عنه محال. فَثَبَت اتِّصَافُهُ بالقُدرةِ وانتفى ضِدُّها، وهو العَجْزُ...

* * *

بُرهان وجُوب الإرادة

وأمَّا بُرهان وجُوب اتِّصافُهُ بالإرادة، فلأنَّهُ لو لم يَكُن مُريدًا لما أوجَدَ شيئًا من العالم، وعدم وجُود شيء من العالم باطِلٌ لرؤيته عند كُلِّ عاقلٍ، فما أدَّى إليه وهُو عدم اتِّصافِهِ بالإرادة مُحال، فَثَبَتَ اتِّصافُهُ بالإرادة، وانتفَى ضِدُّها وهي الكراهية.



بُرهان وجُوب الحياة

وأمَّا بُرهان وُجُوب اتِّصافه تعالى بالحياةِ :

فلأنَّه لو لم يكُن حيًّا لما أوْجَدَ شيئًا من العالم، وعدم وُجُود شيء من العالم باطِلٌ لمُشاهدته عند كُلِّ عاقلٍ، فما أدَّى إليه وهُو عدم اتِّصافه بالحياة مُستحيلٌ، فثَبَتَ اتِّصافُهُ بالحياة، وانتفى ضِدُّها وهو الموت.

* * *

بُرهان وجُوب صِفة العلم

وأمَّا بُرهان وجُوب اتِّصافُهُ تعالى بالعِلْمِ:

فإنَّهُ لو لم يَكُن عالمًا لما أوجَدَ شيئًا من العالم، لكن عدم وُجُود شيء من العالم باطلٌ لمُشاهدته عند كُلِّ عاقل.

فما أدَّى إليه وهو عدمُ اتِّصافِهِ بالعِلْمِ مُستحيل، فثَبَتَ اتِّصافُهُ بالعِلم وانتفى ضِدُّها وهُو الجهل ...

* * *

بُرهان وجُوب صِفة السَّمع والبَصَرُ والكلام

وأمَّا بُرهان وجوب اتِّصافُهُ بالسَّمْعِ والبَصَرِ، والكلام:

فقولُهُ تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ .

وأمَّا بُرهان وجوب اتِّصافُهُ بالكلام:

فقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ .

وتُؤخّذ كُلُّ أدِلَّةِ المعنويَّة من المعاني.

* * *

بُرهان جواز الجائزات

وأمَّا بُرهان جواز الجائِزات في حقِّهِ تعالى:

فلأنَّهُ لو وَجَبَ عليهِ شَيْءٌ منها أو استحَال لانقلب المُمكِنُ واجِبًا أو مُستحيلاً، لكن انقلاب المُمكِن إلى واجب أو مُستحيل باطِلٌ.

فما أدَّى إليه، وهو وُجُوب الفعل أو استحالته عليه وهو محال، فَثَبَتَ جَوازُ المُمكِنات وهو فِعْلُ كُلِّ شَيْءٍ مُمكن أو تركه.

* * *

الباب الخامس

الرُّسُل صَلَوَاتُ اللهِ وسَلامُه عليهم

الباب الخامس

الرُّسُل صلواتُ الله وسلامُه عليهم

وأمَّا الرُّسُل عليهم الصَّلاة والسَّلام: جمع رسُول.

وهو: إنسانٌ ذَكَرَ حُرٌّ من بني آدم أوحَى الله إليه بِشَرْعٍ وأمَرَه بتبليغه، بعيد عن الأمراض المُنَفِّرة.

واعْلَم أنَّ النُّبُوَّة أَعَمُّ من الرِّسالة والرِّسالةُ أَخُص، وبينهما عُمُومٌ وخُصُوص، فَكُلُّ رَسُولٍ نَبِي وليس كُلّ نَبِيٍّ رِسُول.

أمَّا النُّبُوَّةُ فمأخُوذةٌ من النَّبأ: أي الخبَر.

والمقصُود: المُخبِر بالغيب.

والرِّسالةُ أفضَلُ من النُّبُوَّةِ.

والنُّبُوَّةُ أَفضَلُ من الولايةِ، فنهايةُ الولاية مبدأ النُّبُوَّة.

وكُلُّ الأنبياء من ولَدِ إبراهيم إلاَّ ثمانيةٌ منهم: آدم وإدريس ونُوح...

وأربعةٌ من الأنبياء ذواتُهُم ولُغتهم عَرَبيَّة، وهم:

سَيِّدنا مُحَمَّد (ﷺ)، وصالح وشُعيب وهُود عليهم أفضل الصَّلاةُ والسَّلام.

وأنَّ أجدادهم وأُمَّهاتُهم محفُوظون مِنَ السِّفاحِ والشِّرْكِ.

ولا يُبعَثُ الأنبياءُ إلا من الأمصار كالشَّامِ ومكَّة.

وأنَّهُم بِيضٌ مُشْرَبُونَ بحُمرةٍ.

عليهم أفضل الصَّلاة وأزكى التَّحيَّة.

* * *

صِفات الرُّسُل الواجبة

وأمَّا صِفاتُهم فهي أربعةٌ:

الأولى (الصِّدق) :

وهو عبارة عن مُطابقة الخبر للواقع.

وهو ينقسمُ إلى ثلاثة أقسام:

الأوَّل: الصِّدقُ بدعواهم النُّبُوَّة أو الرِّسالة، كقول النَّبي إِنِّي نَبِي من عند الله تعالى، أو كقَولِ الرَّسُول إِنِّي رَسُول من عند الله.

الثاني: الصِّدق في الأحكام التي يُبلِّغُونها عن الله تعالى.

الثَّالث: الصِّدْقُ في الأُمور العاديَّة.

أمَّا الصِّفةُ الواجبةُ الثَّانية فهي (الأمانة):

وهي حِفظ الله جوارِحَهم الظَّاهِرةِ والباطنة عن التَّلَبُّسِ بمنهِيٍّ عنه نَهْيَ تحريم أو نَهْيَ كراهَةٍ أو مُباح بقصدِ الشَّهوات، مع استحالة وقوع الذَّنب منهم، فأفعالُهم دائرةٌ بين الواجب والمندُوب.

تنبيه واحتراس:

أمَّا ما أوهَمَ من ظاهرِ آية أو حديث من وقُوع معصية لنبِيٍّ أو رسول فيجب تأويله أي صَرفه عن ظاهره.

وثالث الصِّفات الواجبة: (الفطانة):

وهي حِدَّةُ الفهم والذَّكاء.

ورابع الصِّفات: (التَّبليغ):

وهُو للرُّسُل.

كتبليغ ما أُمروا بتبليغه للخلق من الأحكام الشَّرعية والسَّمعيات والعبادات والمُعاملات وأخبار السَّاعة وما يتعلَّق بِها، وأنَّ الله أطلعهم على مُغيّباتٍ وأمرهم بكِتمانها، وأطلعهم على عُلُومٍ وخَيَّرَهُم فيها.

* * *

المُستحيل في حَقِّ الرُّسُل

ويستحيلُ في حقِّهم:

الكذب، وهو: الإخبار بغير مطابقة للواقع.

وينقسمُ إلى ثلاثة أقسام:

الأوَّل: الكذب بإخبارهم بالنُّبُوَّة أو الرِّسالة.

الثاني: الكذب في الأحكام التي يبلِّغُونها عن الله تعالى.

الثَّالث: الكذب في الأُمورِ العاديَّة.

وكذا يستحيلُ في حقِّهِم الخِيانة: وهي التَّلبُّس بمنهِيٍّ عنه نهْيَ تحريم أو كراهة أو خلاف الأولى أو مُباحًا بقصد الشَّهوة، سواء كان قبل النُّبُوَّةِ أو بعدها، بل من يوم ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡ﴾.

وكِتمان ما أُمِرُوا بتبليغه.

ويستحيلُ في حقِّهِم: **البلادة** والتَّثاؤُب وكُل مرضٍ مُنَفِّر كالجذام والبرَص والعَمى والسُّل والفالج والجدري.

ويجوز في حقِّ الرُّسُل: وجع الرَّأس والحُمَّى الخفيفة.

* * *

الباب السّادس

البراهين والأدِلّة لصِفات الرُّسُل الواجبة

بُرهان وجُوب الصِّدق

وأمَّا بُرهان صِدق الرُّسُلِ عليهم أفضل الصَّلاة والسَّلام فهو أنَّهُم لو لم يكونوا صادقين للزِمَ الكذبُ في حقِّه تعالى.

لكن الكذب في حقِّهِ تعالى مُحالٌ لأنَّه مُخبِرٌ بوِفقِ عِلمه وإرادته، ولأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ صدَّقَهُم بإرسال المُعجزات والمُعجزة المُنزَّلةِ بمنزلة الخِطاب صَدَقَ عبدي في كُلِّ ما يُبلِّغ عنِّي، فما أدّى إليه وهو عدم اتِّصافهم بالصِّدقِ مُحال، وثَبَتَ اتِّصافُهم بالصِّدق، وانتفى ضِدُّها وهو الكذب.



بُرهان وجُوب الأمانة والتَّبليغ والفطانة

وأمَّا بُرهانُ وجُوب اتِّصافهم بالأمانةِ والتَّبليغ فلأنَّهُم لو خانوا بفِعلٍ مُحَرَّمٍ أو مكرُوهٍ لا نقلَبَ المُحرَّمُ أو المكرُوهُ طاعةً لنا، لكن انقلاب المُحرَّم والمكرُوه طاعةً مُستحيل شَرعًا.

لأنَّ الله تعالى لا يأمُرُ بالفحشاء، فَما أدَّى إليه وهو اتِّصافهم بالأمانة بالخيانة والكتمان والبلادة مُستحيلٌ، فثَبَتَ ضِدُّها وهو وُجُوب الأمانة والتَّبليغ والفطانة.

* * *

وأمَّا بُرهانُ جواز الجائزات في حقِّهم:

فبمُشاهدة وُقُوعُها منهم للمُعاصرين لهم.

إمَّا كان ذلك:

- للتَّسَلِّي وتسلِّي الغير بهم.

- وإمَّا لعِظَمِ أُجُورِهم عند الله تعالى.

- أو لخِسَّةِ الدُّنيا عند الله تعالى، فما جعلها دارَ جزاءٍ لأنبيائِهِ ولا لأوليائه.

* * *

خاتمة بخاتم الرُّسُل رسُول الله (ﷺ) فهو أفضل الخلق وأشرفهم على الإطلاق في الدُّنيا والآخرة.

ويليه إبراهيم فمُوسى فعيسى فنُوح، ثُمَّ بقيَّة الرُّسُلِ، ثُمَّ الأنبياء.

ثُمَّ جبريل ثُمَّ ميكائيل، ثُمَّ إسرافيل وعِزرائيل.

ثُمَّ أبو بكر الصِّدِّيق فعُمر فعُثمان فعلي.

ثُمَّ عامَّة الملائكة أفضل من عامَّة الصَّحابة.

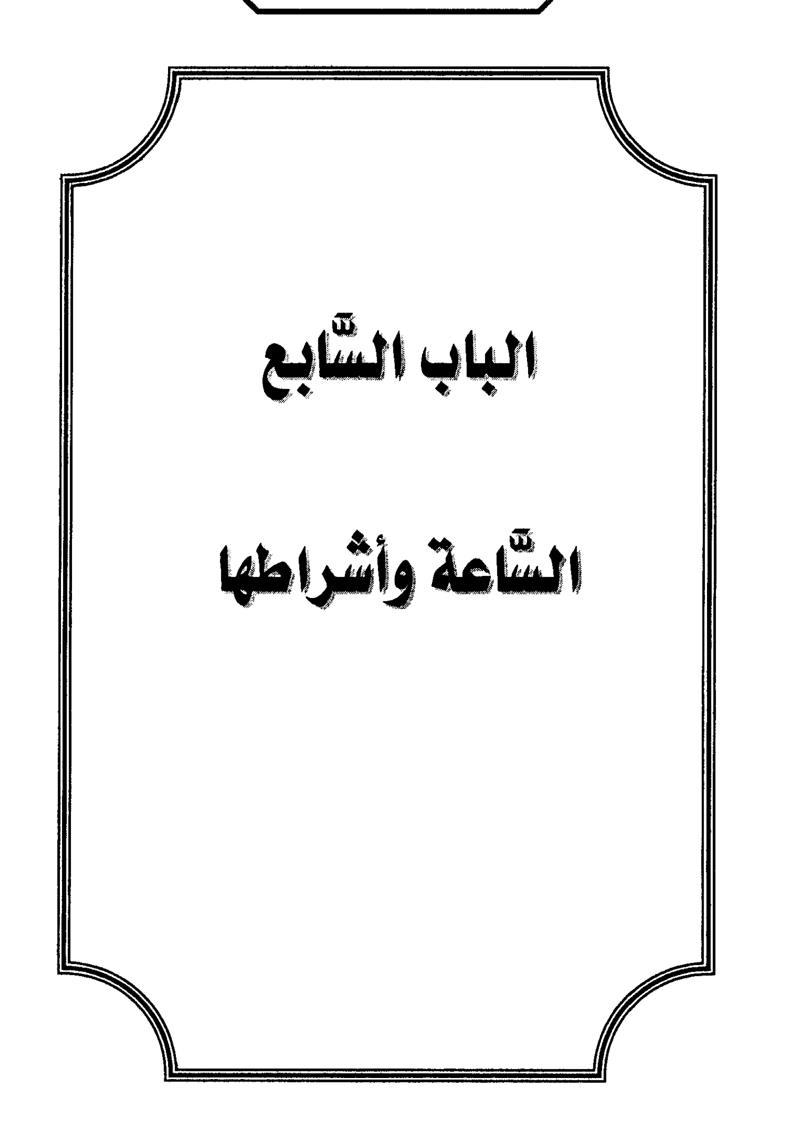
ثُمَّ السِّتَّة الكرام البررة.

ثُمَّ أهل بدر، ثُمَّ أُحُد، ثُمَّ أهل بيعة الرِّضوان، ثُمَّ بقيَّة الصَّحابة.

وإذا ذُكِرَ أصحابُ رسُولِ الله (ﷺ) فلا تذكرونهم إلاَّ بخير، ونلتمس إليهم أحسن التَّأويل بأن نقُول عليٌّ بن أبي طالب اجتهَدَ وأصابَ فله أجران، وإنَّ مُعاوية اجتهدَ وأخطأ فله أجرٌ.

ويليهم في الفضل التَّابعُون ثُمَّ تابع التَّابعين.

***



الباب السّابع

السّاعة وأشراطها

الباب السَّابع
السَّاعة وأشراطها

وممَّا يجبُ الإيمانُ به أشراط السَّاعة، وهي تنقسم إلى قسمين: كُبرى وصُغرى.

- فأمَّا الكُبرى:

فظُهُور عيسى بن مريم، أي نُزُولُه من السَّماء.

ولقد ورَدَ في الحديث: «كيف أنتُم إذا نَزَلَ فيكُم ابنُ مريم وإمامُكم مِنكم».

وقد ذَكَرَ شُرَّاحَ الحديث أنَّ عيسى بن مريم ينزِلُ على جناحي جبريل وميكائيل لابسًا ثوبين مُلطَّخين بالزَّعفران والمِسك كأنَّه خارجٌ من حمَّام، وينزلُ على مسجدِ المنارة البيضاء بدِمشق في صلاةِ الصبُّح من يوم الجُمعة، فتُقامُ الصَّلاةُ عند رُؤيته ويقُولُ له المهدِيُّ: تَقَدَّم يا نبِيَّ الله، فيقُولُ له عيسى بن مريم تقدَّم، لأنَّ الصَّلاةَ أُقيمت لك، فيُصلِّي عيسى بن مريم من خلفه، وهذا مِصداقُ قوله (ﷺ): « وإمامُكم مِنكُم » .

وقد قال الشَّيخُ جلال الدّين السُّيُوطي والمحلِّي وابنُ ماجة وأبو داوود والنّسائي وبقيَّة شُرَّاح الحديث: المُراد: إمامكم منكم وهو المهدي. وقد قال ابن منده: وأحاديث المهدي بلغت ثلاثة وثلاثين حديثًا كُلُّها ضعيفة لكن كثرتها تُقوِّي بعضها البعض.

* * *

سيِّدنا عيسى عليه السَّلام

ثُمَّ يخرُج عيسى بن مريم والمهدي لقتل الدَّجَّالِ، فيَقتُلُ سِيِّدنا عيسى الدَّجَّالَ بحربةٍ ويَكْسِرَ الصَّليبَ، ويقتُل الخِنزير، ويُقاتِلُ المُشركين واليهود والنَّصارى إلى أن يُؤمنوا، ويَضَع الجِزيةَ ولا يقبلها، إمَّا الإسلام أوِ القتال.

ويتزوَّج بالمدينة المُنوَّرة من قبيلةٍ باليمن، ويُولد له ولدان أحدُهما يُسمِّيه مُحمَّدًا والآخر مُوسى. ويموتان بالمدينة ويُقبران بالبقيع.

ثُمَّ إنَّ عيسى يَمُوتُ بالمدينة من بعد هلاك يأجُوجُ ومأجوج، ويُقبر عيسى بن مريم بُحجرته (ﷺ) بمَوضِعٍ خالٍ الآن داخِل المسجد النَّبَوي اسمه (السَّهوة).

* * *

المسيح الدَّجَّال

وثاني أشراط السَّاعة بل أوَّلُها ظُهُورًا: الدَّجال.

وهو من ذُرِّيَّةِ يافث بن نُوح، مكتُوبٌ بين عينيه (يهُودِي) أعور، «ورَبُّكم ليسَ بأعور».

وعرض عليه رسُولُ الله (ﷺ) الرسالة فلم يُؤمن.

ولَهُ دابَّةٌ ما بين أُذنيها مسيرة أربعين ذراعًا، يَطُوفُ بها جميع العالم إلاَّ مكَّةَ والمدينة وبيت المقدس، وجبل الطُّور.

ومعه نهران: نهرٌ يُرَى ظاهره من نارٍ وباطنه من جَنَّةٍ، ونهرٌ يُرَى ظاهرهُ من جنَّة وباطنه من نار.

فيجتمع الدَّجال بالرَّجُلِ ويقُولُ له أنا ربُّك الذي أوجدتُك وإنِّي كُنتُ أُنزِلَ الغيث من السَّماء وأُنبِتُ الخضراء، فيقُول له المُؤمنُ السَّعيدُ: كذبتَ، ربِّي ربُّ السَّموات والأرض.

ويَمكث في الأرض أربعين يومًا: يومٌ كسنةٍ، فيها تُقدَّر الأوقات تقديرًا، ويوم كشهرٍ ويومٍ كأُسبُوع، وبقيَّة الأيَّام كأيَّامنا.

وقيل يجتمع بالخَضِر فيقُولُ له: أنا ربُّكَ، فيقُول له الخضر: كذبْتَ، فيضرِبُ الدَّجَّالُ الخَضِرَ ويرميه نصفين، ويمشي بينهما، ثُمَّ يقُولُ الخَضِرُ: والله ما زادني منك إلاَّ بُعدًا، فيَصْرَعُ الدَّجَّالُ الخَضِرَ ويرميه على الأرض، ويُمسِكُ الدَّجَّالُ بِمُدْيَةٍ فيقُولُ له الخَضِرُ: وُعِدتُ بقتلةٍ منك واحدة ولا تصريفَ لك بعد ذلك، فَيَخلُقُ الله تعالى نحاسةً على قَدْرِ عُنُق الخَضِرِ فيُمْسِكُ الدَّجَّالُ بالمُدْيَةِ ويُريدُ أن يَذبَحَ، فإذا عيسى بن مريم على يده حربةٌ خارجًا من مسجدِ المنارة البيضاء بدِمشق، فعندما يراهُ الدَّجَّال يذُوبُ كما يذُوبُ الملحُ في الماء، فَيَقتُلُه عيسى بالحَربةِ فيموتُ الدَّجَّالُ لوقته.



يأجوج ومأجوج

ثُمَّ العلامةُ الثَّالثةُ:

انتشار يأجُوجُ ومأجوج من السَّدِّ، وهُما من ذُرِّيَّةِ يافث ابن نوح.

كَفَرةٌ عَرَضَ عليهم رسُولُ الله (ﷺ) الرِّسَالةَ فلم يُؤمنوا.

فينتشرون في جميع الأرض حتَّى لا يبقى مقدارُ قَدَمٍ واحِدٍ، أُذُنَا أحدهما تَفرُشُ لطُولِها والأُخرى يلتحِفُ بها صاحِبُها، فيأكلون جميعَ الشَّجَرَ، حتَّى لا يبقى أخضرُ، ويَشربُونَ جميعَ المياه.

ثُمَّ إِنَّ اللهَ تعالى يُوحِي إلى عيسى بن مريم بأنْ يأخُذ المُؤمنين إلى رؤُوس الجِبال، فيُسبِّحُون الله عزَّ وجلَّ، فيدعُو عيسى بن مريم عليهم فيُؤمِّنُ المُؤمنُون على دُعائِهِ.

فَيُصِيبُ الله تعالى يَأجُوجِ ومأجوج بِمَرضٍ في أعناقِهم فيَمُوتُون موتَةَ رَجُلٍ واحِدٍ، فيأمرُ اللهُ تعالى بطُيُورٍ فتأخُذهم وتطرحُهم حيثُ شاءَ اللهُ تعالى.

ثُمَّ يأمرُ اللهُ تعالى الأمطارَ فتنزِلُ، والأشجارَ فتَنْبُتُ، عندها ينزلُ المُؤمنون من ذِرْوَةِ الجِبَالِ.



الشَّمْس

والعلامةُ الرَّابعةُ:

طُلُوعُ الشَّمْسِ من مغربِها ثلاثة أيَّامٍ متواليةً.

ثُمَّ تغيبُ بالمَشْرِقِ ثلاثةَ أيَّامٍ، وعِندها يُغْلَقُ بابُ التَّوبةُ، فَيُسْمَعُ له دَويٌّ عظيمٌ يسمعه جميعُ العوالم.

وتُكسَرُ الكَعبةُ حجرًا حجرًا، ويُرفَعُ القُرآنُ من الصُّدُورِ، ومن السُّطُورِ.

* * *

الدَّابَّة

وخامِسُ العلاماتِ:

الدَّابَّةُ.

وهي: فصِيلُ ناقة صالح.

فيها جميعُ أنواع الحيوانات.

فيخرُجُ ثُلُثُها في مقدارِ ما يَجْرِي الفَرَسُ مسيرة ثلاثة أيَّامٍ، ثُمَّ يخرُجُ الثُّلُثُ الثَّاني، ثُمَّ الثَّالثُ.

وأوَّلُ خروج الدّابَة ما بين الصَّفا والمروة، بيدِها خاتَمُ سُليمان وعَصَى موسى.

فتُخْبِرُ النَّاسِ بما اتَّخَذَهُ النَّصارَى واليَهُودُ والمجُوسُ بأنَّ جميعُ ما اتَّخذوه دينٌ باطِلٌ. وأنَّ دينَ الإسلام هو الحقُّ.

ثُمَّ تتلُو قَولَهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ .

وتُخْبِرُ النَّاسَ بأنَّ هذا مُؤمنٌ وهذا كافرٌ، فتختِم للمُؤمنِ بالإيمانِ وللكافرِ بالكُفرِ.

* * *

العلامات صُغرى

ثُمَّ هناك علاماتٌ صُغْرَى، وهي:

أن تخرُجَ نارٌ من جِهَةَ اليمن.

ويُحْشَرُ اليهُودُ والنَّصَارَى في صَعِيدٍ واحِدٍ.

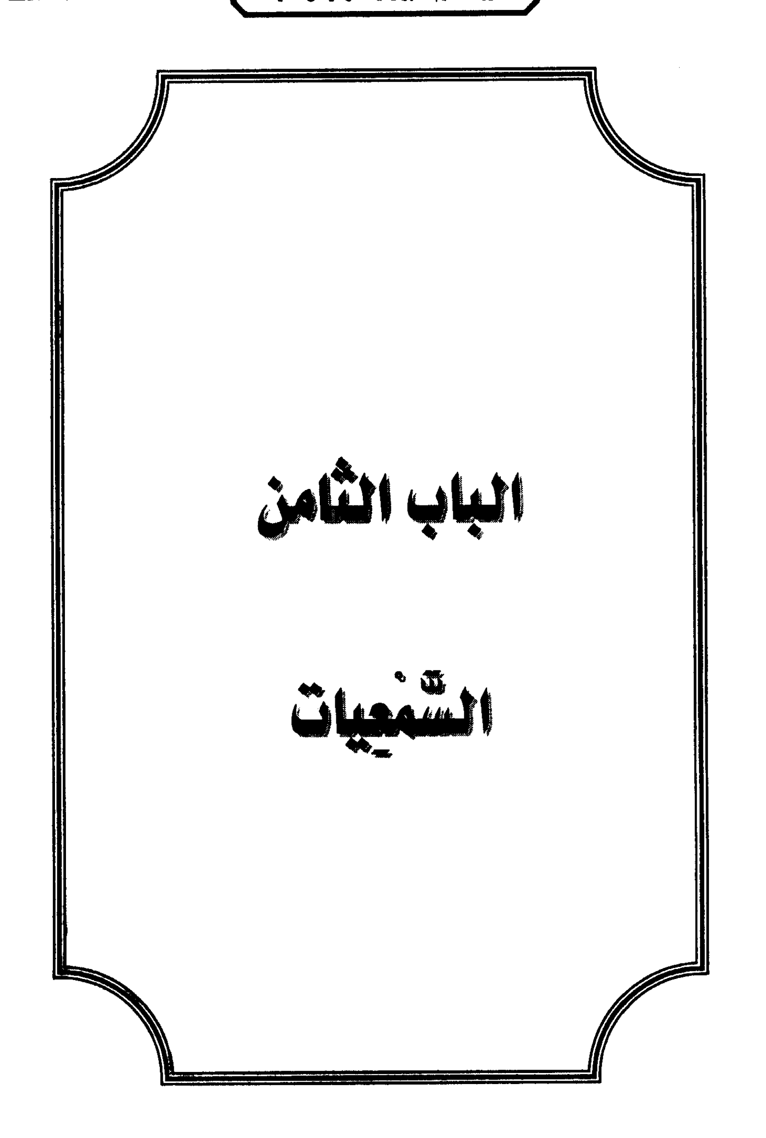
ثُمَّ تَقُومُ رِيحٌ سوداء، فتعُمَّ المشرقَ والمَغربَ حتَّى لا يُعرَفُ الليلُ من النَّهَارِ، فينتشِرُ الزِّنا في الشَّوارِعِ والطُّرُقِ، وهكذا النَّاسُ بين خمرٍ وزِنا، وعبادةِ الأوثانِ والأصنام، هكذا في خمسةٍ وعشرين سنةٍ، والنَّاسُ في غَفَلَةٍ تامَّةٍ، وينتشر أبناء الزِّنا في الأرض وينفَخُ في الصُّورِ، فيتبدَّلُ الأمرُ كما قضاهُ صاحِبُ الأمرِ قال تعالى: ﴿ **وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ** ﴾ ، وهذه نفخة الصَّعق.

وقد اختُلِفَ في النّفخات:

فقيلَ ثلاث نفخات: الفَزَعُ والفناء، والثَّالثة البعث.

قال تعالى: ﴿ **ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ** ﴾ ، وفي هذه الآية إشارة إلى البعث.





الباب الثامن

السَّمْعِيات

البَعث

وهُو إرسالُ الله الأرواح في الأبدان فتَسْرِي الرُّوحُ في البَدَنِ كسَريانِ الماءِ في العُودِ بسببِ نفخةَ من إسرافيل عليه السَّلاَم.

وإنَّ الله تعالى يُنـزِلُ غيثًا كمَنْيِ الرِّجال فَيَعْلُو على الأرضِ مقدارَ اثنَيْ عشر ذراعًا فيَنبُتُ من الأرضِ كما تنبُتُ البُقُولُ.

وهذا معنى: وقُل يُعادُ الجِسْمُ بالتَّحقيق عن عدم: أي بمعنى تتلاشَى أجزاؤُه، فلم يبقَ إلاَّ عجب الذَّنَبِ، فينمو حتَّى يكون كما كان.

قال تعالى: ﴿**كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ**﴾، فيعُودُ الجِسمُ كما كان عليه على حالته في الدُّنيا وإعادة الأعيان على الرَّاجح وإعادة الأعراض.

* * *

النَّشْر

والنَّشْرُ يَعْقُبُ ذلك. وهو عبارة عن هيئة خُرُوج النَّاسِ من القُبُورِ، فكُلٌّ منهم يَقِفُ على قبره، وهو في دهشةٍ وسَكرةٍ عظيمةٍ شاخصًا ببصره إلى السَّماء، ثُمَّ يأمرُ اللهُ عزَّ وجَلَّ بريحٍ تَهُبُّ تحتَ العَرْشِ، فتتطايَرُ الصَّحُفُ، وتنزِلُ على أعناقِ أصحابها، فيأتي المَلَكُ لاستلامِها، فإن كان مُؤمنًا طائعًا فيأخُذ المَلَكُ الصَّحِيفةَ بِرِفْقٍ ويُعطِيها له بيده اليُمنى.

وعندما يَرَاهَا يبيَضُّ وجْهُهُ من كَثْرَةِ الحَسَنَاتِ، وأمَّا الكافِرُ فيأخُذَها ويَشُقُّ المَلَكُ صَدْرَهُ، ثُمَّ يلوِي المَلَكُ يَدَهُ اليُسْرَى ويُدْخِلُهَا على صَدْرِهِ حَتَّى تَخْرُجَ من ظَهْرِهِ، فيُعطِيهِ الصَّحِيفَةَ بيدِهِ اليُسْرَى من خَلْفِ ظهرِهِ وعندما يَرَاها يَسْوَدُّ وجْهُهُ من الكُفرِ وكَثْرَةِ الذُّنُوبِ.

واخْتَلفُوا في العاصِي، فقيلَ يأخُذها بيدِهِ اليُمنى وهو ما ذَكَرَهُ أبومنصُور الماتريدي، وقيلَ السُّكُوتُ أسْلمُ.

وأوَّلُ مَنْ يَأْخُذ صَحِيفَتَهُ بيدِهِ اليُمْنَى سَيِّدُنا عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ، وأوَّلُ من يأخذها بيده اليُسْرَى الأسود بن عبدالأسد.

ثُمَّ يُقادُونَ إلى أرضِ المحشَرِ وهي أرضٌ بيضاء كالفِضَّةِ ما عُصِيَ الله فيها قَطُّ، وتُطْوَى السَّموات، ثُمَّ من بعد طَيِّهَا تَسِيحُ وتَذْهَبُ حَيْثُ شَاءَ اللهُ، وتُبَدَّلُ السماء من ذَهَبٍ والأرض من فِضَّةٍ، ثُمَّ تَنزِلُ ملائكةُ السَّماء الأُولَى فتُحِيطُ بالنَّاسِ كالحَلَقَةِ، ثُمَّ ملائكة السَّماء الثَّانية ثُمَّ الثَّالثة، ثُمَّ الرَّابعة، ثُمَّ الخامسة، ثُمَّ السَّادِسَة، ثُمَّ السَّابعة، ثُمَّ تدنُو الشَّمْسُ من رُؤُوسِ النَّاسِ بمقدارِ شِبْرٍ، وتزدادُ سَبعِينَ ضِعفًا على ضِعفِها حتَّى يكونَ القدَمُ عليه ألف قَدَمٍ، فَيَسِيلُ العَرَقُ في الأرضِ، ويَرتَفِعُ.

ومن النَّاسِ مَنْ يَصِلُ العَرَقُ إلى رجْلَيْهِ، ومنهم إلى سَاقَيْهِ، ومنهم إلى نِصْفِ ساقيه، ومنهم إلى عُنُقِهِ، ومنهم من يتظلَّلُ تحت العرش والأنبياء تحت لواء النَّبيِّ (ﷺ) على كراسي من نُورٍ..

واللِّواءُ له عَلَمانِ بالمَشْرِقِ وعَلَمانِ بالمَغْرِبِ، ورسُولُ الله (ﷺ) على مِنبَرٍ، ووجهه يتلألأُ على أهلِ المَحْشَرِ، ثُمَّ يَشْتَدُّ الكَرْبُ على النَّاسِ ويَتَمنُّون الإنصرافَ ولو إلى النَّارِ، فيجتمعُونَ جماعةً فيأتُونَ لآدمَ ويقُولُون: يا آدم يا أبا البَشَرِ تَشْفَّعْ لنا، فيعْتَذرُ ويَدُلُّهم عَلَى إبراهِيم، فيأتُونَ إلَى إبراهيم الخليل فَيَدلُّهم عَلى مُوسَى.

فيأتُونَ إلى مُوسى، فَيَدُلُّهم عَلَى عيسى، فَيَأتُون إلى عيسى، فيدُلُّهم على مُحَمَّد (ﷺ) وهُوَ جالسٌ على مِنبَرِهِ (ﷺ) ووجْهُهُ يتلألأُ على أهْلِ المَحْشَرِ كتلألُؤ القَمَرِ ليلَةَ البَدْرِ، فيقُولُون: يا مُحَمَّد يا حبيب الله، يا شفيعَ الله تَشْفَّعْ لنا، فيقُومُ (ﷺ).

ويقُولُ ﷺ: أنَا لَهَا.

فَيَقُومُ إلى جِهَةِ يمين العَرشِ وَيَخِرُّ ساجِدًا، ويَطْلُبُ الشَّفاعَةَ، فيأتيه النِّداءُ ارفع رأسَكَ واشْفَعْ تُشَفَّعْ، فتَعُمَّ شَفَاعَتُهُ جميع الخَلْق، أي إراحة النَّاسِ من الموقف إلى الحساب، وهذه هي الشَّفاعة الكُبْرَى وتُسمَّى فَصْلُ القَضَاءِ، واسمُها المقام المحمُود، يَحْمَدُهُ فيه الأوَّلُونَ والآخِرُون.

تنبيه:

أوّلاً: الجماعة التي التجأت للأنبياء والرُّسُلِ ساعةَ الحَشْرِ ولم يَلْجَأُوا لأوَّلِ مَرَّةٍ للنَّبي، ولم يُلهَمُوا ذلك؛ ليَعْلَمَ النَّاسُ فَضْلَ النَّبي على النَّبيين والمُرسَلِين.

ثانيًا: السُّجُودُ الذي صَدَرَ منه (ﷺ) تحتَ العَرْشِ يكُونُ بالطَّهَارَةِ التي كان عليها في الدُّنيا، أي وُضُوء الصُّبْح صبيحة الاثنين يومَ انتقالِهِ (ﷺ) للرَّفِيق الأعلَى، ولأنَّهُ (ﷺ) حَيٌّ في قبرِهِ.

وله شفاعاتٌ:

- منها يشفعُ لأقوامٍ من قُبُورِهم إلى الجَنَّةِ مِن بَعْدِ الحِسَابِ.
- وأقوامٍ من الحِساب إلى الجنَّة .
- وأقوامٍ أُمِرَ بِهِم إلى النَّارِ، ففي الحديث: « أوْلَى النَّاسِ بِي يَوْمَ القِيَامَةِ أَكْثَرُهُم عَلَيَّ صَلاَةً » .
- ومِنَ النَّاسِ مَن يَشْفَعْ لَهُ بعْدَ الدُّخُولِ في النَّارِ، وهُم أهلُ الكبائِرِ.
- ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْفِعْ لَهُم ولو لم يَكُن لهُم عملٌ صَالِحٌ، وقد وَرَدَ شَفَاعتُهُ لعَمِّه أبي طالب، وهو يكون في ضحضاحٍ من النَّارِ.

وهُو أَوَّلُ شافِعٍ ومَشَفَّع عليه أفضل صلوات الله وأزكاها.

اللَّهُمَّ أدْرجنا في شفاعته العُمُوميَّة والخُصُوصِيَّةِ.

وكذلك للأنبياء شَفَاعةً، وللملائِكِةِ شفاعة، وللصَّحَابةِ شفاعة، وللعُلَماءِ شفاعة، وللأولياء شفاعة.



الحساب

وهُوَ: وُقُوفُ النَّاسِ بين يدي العَزير الحَكِيم فَيُحاسِبَهُم على أعمالهم خيرها وشَرِّها.

قال الحسن بن علي ﷺ : فيُحاسبهم الله عَزَّ وجَلَّ في مقدارٍ كحلبِ شاةٍ، ولا يشغله حسابُ الآخر عن الثَّاني، حتَّى يقول كل إنسان أنا المُحاسب وحدي.

ومنهم مَن يكون أدنى إلى الرَّحمة فيدخُلَ الجنَّة بغير حساب.

ومنهم من يكون أدنى إلى الغضبِ فيدخُل النَّارَ بغيرِ حساب، وطائِفةٌ تِقِفُ للحِساب.

ومن الحساب ما هُو يسير، ومنه ما هو عسير.

واليسير: يقُول الله تعالى لعبده: هذه ذنُوبك كُنتُ استُرها في الدُّنيا والآن قد غفرتُها لك ادخُل الجنَّة.

وعسير يُحاسبه الله عزَّ وجَلَّ والملائكة أمام النَّاس.

تنبيه:

لا حِساب على الأنبياء لعِصمتهم، ولا الملائكة، ولا السَّبعين ألفًا.

***

الحوض

ومن السَّمعيات التي يجب الإيمان بها كذلك: حوض النَّبي (ﷺ).

مَاؤُه أبيض من اللبن، وأحلى من العَسَلِ، وأطيب من المِسْكِ، وأبرد من الثَّلْجِ، وكيزانه أكثر من نجُوم السَّماء من ذهب وفضَّة وأباريق.

طُولُهُ -أي الحوض- مسيرة شهر، وزواياه سواء.

فمن شَرِبَ منه لا يظمأ، يَرِدُهُ الأوَّلُون والآخرون من المؤمنين، والراجح أن الأنبياء يشربون من حوضه (ﷺ)، وقيل لكل نبي حوض إلا صالح فحوضه ضرع ناقته.

والراجح الأول، فإن المؤمنين الطائعين يشربون منه، فمنهم من يشرب متلذذا، ومنهم من يشرب لدفع العطش، ومنهم من يطرد طردًا من غير تخليد، يعودون بعد سبعين عاما.

***

الوزن والميزان

ومن السمعيات كذلك: الإيمان بالوزن والميزان.

وهو: كهيئة ميزان الدنيا، له كفتان إحداهما أعرض من طبقة السموات والأخرى مثلها، وله عمود في وسطه كميزان الذهب، وكفة الحسنات عن يمين العرش، وكفة السيئات سوداء عن شمال العرش إلى جهة النار.

وله صنج، فينادي الملك بصوت عال: فلان ابن فلانة، أقدم إلى الحساب، فيأتي وعلى يده صحيفته فتوضع صحيفة الحسنات على كفة الحسنات وصحيفة السيئات على كفة السيئات، فمن رجحت حسناته على سيئاته كان من أهل الجنة، ومن رجحت سيئاته على حسناته كان من أهل النار.

ومن استوت حسناته وسيئاته قيل من أهل (الأعراف)، ثم كل من رجحت سيئاته على حسناته ينادي ملك: « ألا إن فلانا قد شقي شقاوة لا سعادة بعدها » ، ومن رجحت حسناته على سيئاته ينادي ملك: « ألا إن فلانا قد سعد سعادة لا شقاوة بعدها » . والكفار لا حسنات لهم توزن بل يوزن الكفر والذنوب.

* * *

الصراط

ومن السمعيات التي يجب الإيمان بها جملة وتفصيلا: الصراط.

وهو : جسر مضروب على ظهر نار جهنم، أحد من السيف، وأرق من السبيبة، وبين جانبيه الملائكة يقولون: « رب سلم ... رب سلم ».

وفيه كلاليب.

وفيه سبعة قناطر:

القنطرة الأولى قنطرة (التوحيد)، والثانية قنطرة (الصلاة)، والثالثة قنطرة (الزكاة)، والرابعة قنطرة (الصوم)، ثم قنطرة (الحج)، ثم قنطرة (الطهارة)، ثم قنطرة (الأمر بالمعروف)، ثم (بر الوالدين)، والأخيرة (حقوق الناس).

وطوله مسيرة خمسة عشر ألف عاما، خمسة آلاف قيام وخمسة آلاف هبوط، وخمسة آلاف استواء.

والناس مختلفون في المرور، فالسَّالمون من السَّيئات يمرون كالبرق الخاطف، ومنهم كرمشةِ العين، ومنهم كالرِّياح، ومنهم كجري الخيل، ومنهم كجري البِغال والحمير، ومنهم من يزحفُ ببطنه، ومنهم من يهوي به الصِّراطُ ثُمَّ يرتفعُ إلى الصِّراط، ومنهم من تأخذه الكلاليب وهي كشَوكِ السَّعدان، أي كرقاب الإبل، فتأخُذ العاصي وتُلقيه إلى النَّار، ومنهم من تخدشه خدشًا ثُمَّ يتخلَّص.

واختلفُوا في الكُفَّارِ:

فقيلَ: يُلقَون من أرضِ المحشر إلى النَّارِ.

وقيل: يَشْرَعوا في الصِّراط ثُمَّ تأخُذُهم الكلاليب فترميهم في النَّارِ خالدين فيها أبدًا.



النِّيران

ومِمَّا يجبُ الإيمانُ به أيضًا: طبقات النِّيران السَّبع.

والنَّارُ أُوقِدَ عليها ألف سنة حتَّى احمرَّتْ، ثُمَّ ألفَ سنةٍ حتَّى اصْفَرَّتْ، ثُمَّ ألف سَنَةٍ حتَّى اسْوَدَّتْ، فالآن هي سوداء مُظلمة، ترمي بشَرَرٍ كالقَصرِ، وفيها حيَّاتٌ وعقاربُ.

وهي سَبْعُ طبقات:

أوَّلُها: نارُ (جهنَّم) للعاصي.

وثانيها: (لظَى) لليَهُود.

ثالثها: (الحُطُمة) وهِي للنَّصَارَى.

رابعها: (السَّعير) وهي للصَّابئين -فرقةٌ من اليهُود عبدت الكواكب-.

خامسها: (سَقَر) وهي للمجُوس.

سادسها: (الجحيم) وهي لعابد الوثن.

سابعها: (الهاوية) وهي للمُنافقين.

قال تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ** ﴾ ، فجميع الطَّبقات أصحابها مُخَلَّدُون إلاَّ الطَّبَقة الأولى وهي طبقةُ العُصاة، فمنهم مَنْ يَمكُثُ فيها سَاعات، ومنهم أُسبُوع، ومنهم سَنَة، ومنهم سنتان حتَّى يكون آخر مقرٍّ فيها سبعة آلاف سنة، ثُمَّ بعد خُلُوِّها من العُصاةِ تُملأ حجارة..

* * *

الجَنَّة

ومما يجبُ الإيمان به من السَّمعيات: الجنَّة.

وهي لُغةُ: البُستان.

وفي الاصطلاح: دار خلُود أعدَّها اللهُ تعالى لِمَن آمن بِهِ، ولم يُلحِد في آياته وأسمائِه، طَيِّبَةُ التُّربة.

حصباؤها من لُؤلؤ، وقُصُورهُا من ذهَب ومن فِضَّةٍ، فيها غُرُفٌ يُرَى ظاهِرُها من باطِنها وباطنها من ظاهرها، فيها أنهارٌ من عَسَلٍ ولَبَنٍ وخَمْرٍ وماءٍ، وفاكهةٍ ولَحْم طيرٍ مما يشتهُون، وحُورٌ عينٌ، ويُعْطَى لكُلِّ واحد من المؤُمنين على حَسَبِ عمله من الحُور، وفيها وِلدانٌ بأيديهم أباريقَ من ذَهَبٍ وفضَّةٍ يَخدُموا المؤمنين، وفيها فُرُشٌ من ديباجٍ من حرير أخضر، وفيها يُتَوَّجُ المُؤمنون بتِيجانٍ من ذَهَبٍ وفِضَّةٍ، وحُلَلٌ.

والحاصل: فيها ما لا عَيْنٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ.

واخْتُلِفَ في عدد الجِنان، فقيلَ ثمانية، وأبوابها ثمانية عشر، وقيل أربعة وهو الذي صَدَرَ بِهِ الشَّيخ مُحَمَّد عليش.

واختلفوا في موضِعها، فقيلَ فوق السَّماء السَّابعة، وقيل في السَّماءِ الرَّابعة، والمُعتمد لاَ يَعلَم بموضعها إلا اللهُ تعالى.

والجَنَّةُ موجودةٌ، والنَّارُ موجودة الآن، وهذا ما جَزَمَ بِهِ أهلُ السُّنَّةِ على الإطلاق.

العَرش

ومما يجب الإيمانُ به: العرش.

وهو: جِسمٌ نوراني مُحيطٌ بالسَّماء كالقُبَّةِ، سُمكُهُ مَسِيرة خمسمائة عام.

فقيل: هو من لؤلؤةٍ حمراء، وقيلَ: خضراء، وقيل: من لؤلؤةٍ بيضاء.

وحَمَلَةُ العَرْشِ الآن أربعة، وفي الآخرةِ ثمانية، وله قوائم.

* * *

الكُرسي

وهو: جرْمٌ نورانيٌّ، سُمُكُه مسيرة خمسمائة عام.

وما بينه وبين العرش مسيرة خمسمائة عام.

* * *

سِدرة المُنتَهَى

أصلُها في السَّماءِ السَّابعةِ، وفروعُها تحت العَرْشِ، وصفقها من ذَهَبٍ وفِضَّةٍ ولُؤلُؤ.

وقد رَوَى الطَّبَرَانِي: «أنَّ الصَّفقة منها تظل الأمة جمعاء».

* * *

اللَّوح المحفُوظ والقلم

واللَّوح المحفُوظ جرْمٌ عظيمٌ فوق السَّماء السَّابعة، فيه كُتِبَ ما كان وما يكون إلى يوم القيامة، والقلم على اللَّوح المحفُوظ.

وأوَّلُ ما أمره الله تعالى أن يَكْتُبه كَتَّبَ (بسْمِ الله الرَّحْمَن الرَّحيم).

وقد جاء أن الحَرْفَ في اللوح المحفُوظ كجبل قاف.

تنبيه:

لا يُقال أنَّ الله تعالى خَلَقَ العَرْشَ ليُسْتَظِلَّ بِهِ، ولا الكُرْسِي للجُلُوس عليه، ولا القلم للذُّهولِ والنِّسيان، بل خَلَقَ كُلَّ ذلك لِحكمةٍ يعلمها هو، فتنبَّه يا أخِي من عقائد الكُفْرِ حَفِظَكَ اللهُ.

*** * ***

السَّموات والأرضين والجن

وكذلك من السَّمعيات: الإيمان بالسَّموات السَّبْع، والأرضين السَّبع، كما نَصَّ عليها القُرآن في آياتٍ مُحكمات.

وكذلك الجِن بأنَّها أجسامٌ ظُلمانيَّةٌ يتشكَّلُون بالصُّوَرِ القبيحة.

وقد ذَكَرَ الشَّبراخيتي أنَّ الصُّوَرَ تَحْكُم عليهم.

*** * ***

الأولياء

ومما يجبُ الإيمانُ به: الأولياء. جمعُ ولِي

وهُو: العارفُ بالله على حسبِ الإمكان المواظب على طاعة الله من غير أن يتخلَّلها معصيةَ، وهو التَّارِكُ لجميع اللّذّات والشَّهَوات.

والولايةُ أصلاً فيضيَّةٌ كالنُّبُوَّةِ لا اكتسابَ فيها.

ومن الولاية: العُلُوم اللَّدُنِّيَّةِ، والنَّظرُ في اللَّوح المحفُوظ، والنَّظَرُ إلى ملكوت السَّموات.

وقيلَ: عددهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا - ذَكَرَهُم الشَّعْرَاني، يكون منهم (القطب) الفرد الجامع الموكل بجميع الدَّوائر، وله سِتَّة عشر علامة، وثانيه (الفرد) وهو في دائرة الغَوث إلاَّ أنَّهُ خارجٌ من تصريفه يليها (الإمامان) وهُما القُطب الشِّمالي والقُطب اليميني.

أمَّا القُطب اليميني: فله إطّلاع بعالم الملكُوت، وله مائتا جناح من نور.

والقُطب الشِّمالي على قَلْبِ الغوث، وله اطّلاع على قلب الغوث، ثُمَّ الأوتاد وهم أربعة، ثُمَّ الأبدال وهم أربعُون، ثُمَّ الأخيار وهم سبعة، ثُمَّ النُّقباء وهُم سبعُون، ومنهم النُّجباء وهم ثلاثمائة ويُسمُّون بأهلِ الدِّيوان.



الباب التاسع

لا إله إلاَّ الله مُحَمَّد رسُول الله

الباب التَّاسع
لا إله إلاَّ الله مُحَمَّد رسُول الله

خاتمة الأمر وتصفية العقيدة: يجمع معاني ذكر ما تقدَّم في كلمتي الشَّهادة يعني جميع ما تقدَّم وما حوت هذه الرسالة في التَّوحيد، كل ذلك ذكره مُنطَوٍ تحت « لا إله إلاَّ الله، مُحمَّد رسُول الله » وهُما كلمتا التوحيد، وإنما سُميتا كلمتا الشَّهادة لأنهما يشهدان لمن نطق بهما.

فالأولى: لا إله إلا الله:

لها معنيان:

المعنى الأول باعتبار التفسير (الحقيقي) وهو بأن تقول:

لا معبود بحق إلا الله، فإنها مشتملة على نفي وإثبات، والنَّفي هو نفي الألوهيَّة عن ما سواه عزَّ وجل، والإثبات قصر الألوهية له تعالى، وهذا هو المعنى (الحقيقي).

والمعنى (اللازم) هو لا مُستغني عن كُلِّ ما سِواه إلا الله، ولا مفتقر إليه كل ما عداه إلاَّ الله، فيدخل تحت وجوب الاستغناء ثمانية وعشرون عقيدة، منها ما هي واجبات، ومنها ما هي مستحيلات، ومنها جائزات.

فأما (الواجبات) فأولها الوجود والقدم والبقاء ومخالفته تعالى للحوادث، وقيامه تعالى بنفسه، وأيضًا تنزهه عن النَّقائص، ويثبت له كل كمال إجمالاً.

وتفصيلاته ستة صفات ثلاثة من المعاني وثلاثة من المعنوية، فأما التي من المعاني فالسمع والبصر والكلام، وأما التي من المعنوية فكونه تعالى سميعًا وبصيرًا ومتكلمًا، فهذه ست صفات تضم إلى الأولى، فيكون المجموع إحدى عشر، وأضدادها إحدى عشرة، وهي: العدم والحدوث والفناء والمماثلة للحوادث والاحتياج إلى المحل والمخصص والصمم والعمى والبكم، وكونه تعالى أعمى وأصم وأبكم.

ويندرج أيضًا نفي وجوب الفعل عليه تعالى واستحالته، وهذا إشارةٌ إلى الجائز، وتنزهه عن الأغراض في الأفعال والأحكام، ونفي التّأثير عن طريق القوة، فهذه ثلاثة فالمجموع ست تضم إلى العدد الأول فحاصل اندراج عقيدة الاستغناء ثماني وعشرون عقيدة.

ثم يندرج في ثبوت الافتقار اثنان وعشرون عقيدة، منها تسعة صفات واجبات هي: الوحدانية والقدرة والإرادة والحياة والعلم، وهذه خمسة، وكونه تعالى قادرًا مريدًا وحيًا وعالمًا فهذه تسعة، ثُم أضدادها وهي: التعدُّد في الذات والصفات والأفعال، والعجز والكراهية والموت والجهل، وكونه عاجزًا ومكرهًا وميتًا وجاهلاً، فهذه تسعة تضم إلى التسعة فيكون المجموع ثمانية عشر.

ثم يندرج حدوث العالم بأسره وعدم تأثير شيء بأثرٍ ما، وأضدادها اثنان فيكون حاصل الجميع اثنتان وعشرون عقيدة لثبوت الافتقار، وثمانية وعشرون عقيدة لثبوت الاستغناء، حاصل الجميع خمسُون عقيدة منطوية في (لا إله إلا الله).

وأمَّا الكلمة الثانية: (محمَّد رسول الله) :

فيندرج تحتها ست عشر عقيدة، وهي ما يجب على الرسل أربع: الصدق والأمانة والتبليغ والفطانة.

ويندرج في حقهم عليهم أفضل الصلاة والسلام جواز الأعراض البشرية التي لا تؤدِّي إلى نقص في مراتبهم العلية.

ويندرج في الإيمان بالرسل: الإيمان بالكُتب السَّماوية والملائكة واليوم الآخر وما فيه.

فهذه أربعة تضم إلى الأربعة الأولى، فحاصل الجميع ثمانية، وأضدادها ثمانية تصير ست عشرة عقيدة منطوية تحت (مُحمَّد رسول الله).

فتجمع الأولى والثانية فيكون حاصل العقائد التي تؤدي إلى تحقيق واستيعاب ومعرفة كلمتي الشَّهادة: ستًا وستين عقيدةً.

قال فيها العلماء: من حفظها لم تمسُّه النَّارُ.

* * *

لا إله إلاَّ الله

وأكثر من ذِكرِ لا إله إلاَّ الله، مع مصاحبة لآداب الذِّكر من طهارةِ حدَثٍ وخَبَثٍ وجُلُوسٍ على طاهِرٍ وتطَيُّبٍ بطِيبٍ، وركعتان قبلها، مع خُلوةٍ واختلاء واستغفار، وصَلاة على النَّبيِّ (ﷺ)، واستحضار الشَّيخ فإنَّهُ مُعِينٌ لَكَ في طريق الله، وتغميض العينين، واتِّخاذ مِسَبحَةٍ، والنَّظَر في معانيها، واستحضار أنَّها آية من القُرآن، والسَّكتة من بعد الذِّكر بمقدار ما يدخل الهِرُّ في ثقبٍ وعدم شُربِ الماء.

وقد جاءَ في فضلها أحاديث كثيرة، منها:

قوله (ﷺ): « أَفْضَلُ مَا قُلْتُهُ أَنَا والنَّبِيُّون مِن قبلي لا إلهَ إلاَّ الله ».

وأيضًا قال (ﷺ): « مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ خالِصًا دَخَلَ الجَنَّةَ ».

وأيضًا قال (ﷺ): « مَن قَالَ لا إلهَ إلاَّ الله ومَدَّها هَدَمت لَهُ أربعةَ آلاف كبيرة ».

وأيضًا عنه (ﷺ): « مَن كان آخِرَ كلامُهُ من الدُّنيا لا إلهَ إلاَّ الله دَخَلَ الجَنَّة»، قَالُوا: يا رسُولَ الله وإنْ زَنَى وسَرَقَ؟ قَالَ: «وإِنْ زَنَى وسَرَقَ، وإن زَنَى وسَرَق ».

وأيضًا في الحديث: « أَفْضَلُ الذِّكْرِ لا إلهَ إلاَّ الله، وأَفْضَلُ الدُّعاءِ الحَمْدُ لله » ، وقد وَرَدَ : « أَنَّهُ لَو وُضِعَتْ السَّبْع سموات والسَّبع أرضين في كفَّةٍ ولا إلهَ إلاَّ الله في كَفَّةٍ رَجَّحَتْ بِهِم » أي الكلمة.

قال السنوسي: وقد ذكر فيها أربعة وعشرين حرفا، وأن ساعات الليل والنهار أربعة وعشرون ساعة، فمن قالها مرة واحدة غفر الله له ذنوب الليل والنهار بعدد حروفها.

ثم ذكر أن في الجملة الشريفة سبعة جمل وأبواب النيران سبعة، فمن قالها أغلق الله تعالى بكل جملة بابا من النار، ومن واظب على تلاوتها ثلاثمائة في الليل والنهار يعد من الذاكرين الله تعالى كثيرًا.

ومن ذكرها إثنى عشر ألفا إلى سبعين ألفا حتى تمزج معانيها بدمه وروحه فيرى لها عجائب من ملكوت السموات، وأنها تورثه (الصديقية).

اللهم اجعلنا ناطقين بها عند النزع، وثبت بها أقدامنا على الصراط، وثبتنا بها على القول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وثبتنا عند فتن الليل والنهار، ومن كل حاسد وراصد، ومن همم الرجال، واحفظنا بها عن الردة والكفر والجدال، وطهر بها قلوبنا من سائر الأمراض الظاهرية والباطنية، تحلية وتخلية بمقامات اليقين، وأفرغ على قلوبنا من العلوم والأسرار، ومدنا بعون وعافية، واحفظنا وسائر المسلمين من سوء الخاتمة والحسد والغل والكبر ومُنّ علينا بالتواضع والرضا.





الباب العاشر

التصوف

الباب العاشر
التصوف

السُّلُوك إلى الله تعالى

وكل أمر بالقضاء والقدر ... وكل مقدور فما عنه مفر
وكن له مسلما كي تسلما ... واتبع سبيل الناسكين العلماء
وخلص القلب من الأغيار ... بالجد والقيام في الأسحار
والفكر والذكر على الدوام ... مجتنبا لسائر الآثام
مراقبا لله في الأحوال ... لترتقي معالم الكمال
وقل بذل: رب لا تقطعني ... عنك بقاطع ولا تحرمني
من سرك الأبهى المزيل للعمى ... واختم بخير يا رحيم الرحماء
والحمد لله على التمام ... وأفضل الصلاة والسلام
على النبي الهاشمي الخاتم ... وآله وصحبه الأكارم

ا.هـ الخريدة الدرديرية.

قوله: (**كُلُّ أَمْرٍ بالقضاءِ والقدر**): أي كُلُّ شيءٍ راجِعٌ أي مُتعلِّق القُدرةِ والإرادةِ والقضاء راجعٌ إلى تعلُّق العِلم والإرادة، والقدرُ راجعٌ إلى تعلُّق القُدرة.

قال الأقفهسي: (القَدَرُ مجموعُ ثلاث صِفات: الإرادة والعِلم

والقُدرة)، والمعُتمد التَّفصيل، فإنَّ القضاءَ يرجِعُ إلى مُتعلِّق العِلمِ والإرادةِ، والقَدَرُ يرجِعُ إلى تعلُّق القُدرة.

قوله: (كُلُّ مقدُورٍ): أي كُلُّ ما عَلِمه اللهُ تعالى من المُمكناتِ فلا بُدَّ من وُقُوعه، وأراده بإرادته من خيرٍ أو شَرٍّ من ضَرَرٍ أو منفعةٍ.

قوله: (فما عنه مَفرٌّ): أي هُرُوب.

وقولُهُ (وكُن له مُسَلِّمًا): أي مُفوِّضًا الأمرَ إليه .

(كي تَسْلَمَا) من غَضَبِهِ وسَخَطِهِ.

قَولُه: (واتَّبِعْ سَبِيلَ النَّاسِكينَ): من العُلماء بمعنى المُتنسِّكين والسَّالِكين لطريق الله عَزَّ وجلَّ، أي كنايةٌ عن توجُّه القَلْبِ وصَرْفِهِ إلى الله تعالى مع الهِمَّةِ العاليةِ التي تخرِق سَبْعَ سموات.

قَولُهُ: (النَّاسِكين العُلماء): يعني المُراد بهم العُلماء المُتصوِّفين كأبي القاسم الجنيد، فقد كان عالمًا في عِلْمِ الظَّاهِرِ والباطِنِ، وكان يتعبَّد بمذهب الإمام أبي ثور - ذكره الغزالي.

والجنيدُ: هو إمامُ الصُّوفيَّة وسَيِّدُهم، فقد قال: «ليس طريقنا عن القيلَ والقالِ، وإنَّما طريقنا مبنيٌّ على المُجاهدةِ والمُكابدةِ والجُوع وسلامة الصَّدْرِ»، ثُمَّ من كلامه رضي الله عنه: «وطريق الله للنَّاسِ معلُومٌ أن يقتفُوا أثَرَ رسُولِ الله (ﷺ) وأصحابه والتَّابعين ومن تَبِعَهم».

وأمثال أبي القاسم الجنيد القُطبِ الرِّفاعي وتابعيه، والقُطب

عبدالقادر الجيلاني وتابعيه، والقُطب العلوي الشَّريف البدوي وتابعيه، والقُطب إبراهيم الدُّسُوقي وتابعيه، وأبو الحسن الشَّاذلي وتابعيه، والخلوتي وتابعيه، والنَّقشبندي وتابعيه، فهُم من أهلِ الأُصُولِ السَّبْع.

وقد أُلحِقَ بهم أسيادٌ كِرامٌ ذَكَرَهُم النَّبهاني، وهو القُطبُ السَّيِّد عبدالكريم السَّمَّاني وتابعيه، والقُطب أحمد ابن إدريس وتابعيه، والقُطب الشَّريف المكِّي السَّيِّد مُحمَّد عُثمان الميرغني وتابعيه، وقُطبٌ بغرب السُّودان، ويُكنَّى بإسماعيل الولي، فالكُلُّ يُدُلُّون على الله بالقَولِ والفِعلِ، فأيُّهُم سَلَكْتَ طريقه أوصَلَكَ إلى الله، فلا مِزيَة لأحَدٍ على الآخرِ.

كبته مُحمَّد عليش .

فالكُل استمدادهم من النَّبيِّ (ﷺ)، اللَّهُمَّ أمِدَّنا بمددهم، وأنظِمنا في سِلْكِهِم، وأفِض علينا كما أفضْتَ عليهم، وأوصِلنا كما أوصَلتَهُم، أسباب أنت الذي سبّبتها.

* * *

وقوله: (**وجَدِّدِ التَّوبَةَ للأوزارِ**) :

فالتَّوبةُ لَغةً: هي الرُّجُوعُ من أوصافِ مذمُومةٍ إلى أوصَافٍ محمُودةٍ.

ولها أركانٌ وشُرُوطٌ:

فأمَّا رُكنُها: فهُو النَّدَمُ فقط، وهو تَحسُّرُ بالقلبِ، وتَوَجُّعُهُ من حيثُ أنَّ الذّنبَ مُؤَاخَذٌ بِهِ عند الله يوم القيامةِ، لا مِن مَرَضٍ أو من تَلَفِ المالِ،

فلا يُعَدُّ هذا التَّأَلُّم القلبي ندَمًا.

وأمَّا شُرُوطُها فثلاثةٌ:

أوَّلُها الإقلاعُ عن الذّنبِ إن كان متلبِّسًا بِهِ.

ثانيها نفي الإصرار.

ثالثها ردُّ المظالِمِ إن كان ذاكِرًا قادِرًا.

قال الدَّرديري: فإن كانت مُقوَّمة رد ثمنها، وإن كانت مثلية رد المثلي، فإن لم يجد أصلاً استحلها بطلب العفو وذكر التَّبِعاتِ مُجملةً، كأن يقُول له لك عَلَيَّ تبعاتٍ من مالٍ فاعْفُ، وأمَّا عند الشَّافعي فيُفصِّلُها.

قوله: (**للأوزار**): ظاهره من جميع الذّنُوبِ كبائرها وصغائرها، وهو مذهب المُتصَوِّفة، وأمَّا عند الإمام اللَّقَّاني فتقع التَّوبةُ من الكبائر فقط.

قُولهُ: (**لا تيأسن**) أي لا تقنط من رحمة الغفَّار، فاللهُ عزَّ وجَلَّ يَغفِرُ الذُّنُوب للمُؤمنين من غير توبةٍ.

وقوله: (**وقُل بِذُلٍّ رَبِّ لا تقطعني عنك بقاطِعِ**) بذل أي انكسارٍ، بمعنى انخفاض القلب مع التَّذلّل لأنَّهُ قريبُ الإجابةِ.

قوله: (**لا تقطعني عنك بقاطع**) أي في السير، والقواطع التي تقطع عن السَّير للمولى عَزَّ وجَلَّ ثلاثمائة وستُّون قاطعًا ذكرها الدّباغ كطلب

العبادة للفتح أو الكشف أو النَّظر إلى ملكوت السَّموات، أو كالنَّظر إلى اللَّوح المحفُوظ، فالكُلّ قواطع .

(**وتَرَحَّمْ**) أي أنْعِم علينا.

وقوله: (**وطَهِّرْ القلب من الأغيار**)، فالقُلوب جمع قلب وهي اللطيفة الإلهيَّة، فإنَّها تختلف باختلاف ميلها.

فإنْ مالت إلى الدّناءَةِ تُسمَّى نفسًا، ودوائرها سبعة:

أوَّلُها: (الأمَّارة) وهي التي تأمر صاحِبَها بالسُّوءِ والكُفرِ والمعصِيةِ، ونُورُها أسود ظُلماني، ورؤيتها الخنازير والدم، فالتخلص منها بتلاوة (لا إله إلا الله) مائة ألف مع التكرار.

وثانيها: (النفس اللوامة) وهي التي تلوم صاحبها بعد الوقوع في الذنب، ونورها أصفر، ورؤيتها المباحات، فالتخلص منها باسمه (الله) ستة وستون ألفا.

وثالثها: (الملهمة) وهي التي ألهمت فجورها وتقواها، ونورها أخضر، ورؤيتها المساجد والصالحين، فالتخلص منها باسمه (هو) ستة وستون ألفا.

ورابعها: (المطمئنة) وهي التي اطمأنت وسكنت للمقادير فيستوي عندها الذم والمدح، ونورها أخضر، وعلومها من اللوح المحفوظ، ورؤيتها الأنبياء والملائكة والتخلص منها باسمه (حي) ستة وستون ألفا.

وخامسها: (الراضية) وهي التي رضيت بها عند الله واستسلمت، ونورها أخضر، وعلومها المعارف والأسرار والتخلص منها باسمه (حق) ستة وستون ألفا.

وسادسها: (المرضية) وهي بينها وبين الراضية عموم وخصوص، وهي تقتضي المشاركة وزيادة، والتخلص منها باسمه (قيوم) ستة وستون ألفا.

وسابعها: (الكاملة) وهي التي تكملت من جميع الدوائر.

قوله: **(من الأغيار)** وهي الأمراض الباطنية، وهي ألف وستمائة مرض أصلا وفرعا.

قوله: **(بالجد)** وهو إطالة السهر والجوع مع الذكر والفكر على الدوام وربط الشيخ بالقلب، والإكثار من الصلاة على النبي (ﷺ) حتى يحصل الخضوع والتذلل والإنكسار، فيحصل في الروح صولة واسطلام فيغيب العبد عن جميع الأكوان والمكونات حتى يغيب عن إحساسه، ويفنى الفناء المطلق.

وهذا يسمونه (بجمع الجمع)، ثم يأتيه (الفرق) ثم (الوصل) ثم (وصل الوصل) وهذا أقصى مقام ترقى إليه الأولياء، وبها ينتهي إلى مقام (الصديقية) وهي دون النبوة وفوق الصحبة، وبابها مفتوح إلى يوم القيامة، بخلاف النبوة فقد أغلق بابها.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ ، وفي الحديث: «لا نبي بعدي»، ومن هنا يعلم أن الصديقية بخلاف النبوة، وبابها مفتوح لكل من طرق هذا الباب.

واعلم يا أخي -وفقك الله- إن هذا الباب لا يصل إلى أحد حتى يتصفى من أصول جميع الأمراض الباطنية، وهي ألف وستمائة مرض باطني.

والأصول أربعون، وفي كل أصل أربعون فرعا -ذكرها أبو حامد الغزالي في إحيائه، في باب المهلكات من الجزء الثالث.

ويتلخص لدينا:

أن طريق القوم البحث عن تلك الأمراض الباطنية، وتصفيتها من القلب، وكيفية العلاج منها والتداوي، وعلامات العلاج والتصفية.

ولتعلم يا أخي حق العلم أن الطريق مشيد بالكتاب والسنة، وهي أخلاق المرسلين والنبيين.

أما دليل كونه مشيدا بالكتاب والسنة: فقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ أي طريقنا.

ومعنى ﴿ جَٰهَدُواْ فِينَا ﴾ عن طريق الامتثال واجتناب جميع النواهي:

(ما ظهر منها): وهي ما يتعلق بالجوارح .

(وما بطن منها): وهي داء القلب الذي أشار إليه الإمام الغزالي.

ولتعلم حقا أن المجاهدة لا تكون إلا عن طريق الرياضة مع الجوع والسهر، وقيام الليل، والذكر المحض مع صحبة الشيخ العارف الخبير بداء القلب.

ودليلنا على ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ** ﴾.

وأيضًا الدليل على طلب الحقيقة قوله تبارك وتعالى حكاية عن موسى: ﴿ **هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا** ﴾.

قال الإمام الصاوي: « هذا دليل على وجوب طلب الحقيقة، وهي متوقفة على صحبة الشيخ الكامل، فهي لا توجد عن طريق الكتب ولا المطالعة ولا أخذها من كتب العلماء إلا بصحبة الشيخ العارف...» انتهى ما ذكره الصاوي على الجلالين.

ودليل آخر على طريق القوم قوله تعالى: ﴿ **إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** ﴾، وذلك دليل قاطع على تصفية القلب من الرعونات النفسية والأمراض الباطنية، وكذلك قوله تعالى: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا** ﴾ أي النفس، زكاها: بمعنى طهرها من جميع الأمراض أصلا وفرعا.

وفي الحديث قوله (ﷺ): « التقوى ها هنا » مشيرا إلى جهة قلبه ثلاث مرات.

فالمعنى: أن التقوى متوقفة على صفاء القلب من جميع الأمراض الباطنية.

فإن لم يتصفى القلب لا يستقيم الظاهر، لحديث صريح بقوله صلوات الله وسلامه عليه: « ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب » .

فدل من الآيات المتقدمة والأحاديث السابقة أن التصوف فريضة على كل مسلم ومسلمة، إذ لا يخلو أحد من هذه الأمراض الباطنية إطلاقا، والتخلص منها بالفعل يجب وجوبا عينيا، والآية صريحة: ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾

قد ذكر أبو حامد الغزالي وجوب معرفة الأمراض الباطنية إلا على ما يسمونه بالمجذوب وجمعه مجاذيب ، وهو السليم القلب بالفطرة.

* * *

ولما علمت من **وجوب التصوف** من الآيات المتقدمة والأحاديث الواردة أردنا أن نذكر في التصوف، وفي بيان أصول الأمراض الباطنية نبذة مختصرة للفائدة ، فنقول:

اعلم أن التصوف لغة: مأخوذ من الصفوة.

وأما في اصطلاح العلماء ففيه عدة أقوال:

فقد قيل: مأخوذ من أهل الصفة، وهم جماعة من الصحابة جلسوا في المسجد ملازمين العبادة ليلا ونهارا، منقطعين لله تعالى عن العلائق الدنيوية.

وقد قيل: فيه أيضًا: مأخوذ من لبس الصوف، وقيل مأخوذ من صفاء القلب فيسمى صفوة.

وقيل: نور انقدح للعارف بربه فبه كشف عن عيوب النفس والأخلاق المذمومة بمعاصرة العلم والعمل.

والقول الراجح لدى المحققين هو: عبارة عن صفاء القلب من أصول الأمراض الباطنية، وفروعها تخلية بمقامات اليقين وتحلية.

* * *

الأمراض الباطنيَّة

مبحث الرِّياء والسُّمعة والعجب والكِبر والحَسَد

واعْلَمْ أَنَّ أُصُول الأمراض الباطنيَّة أربعونَ أصلاً، وفي كُلٍّ أربعون فرعًا، وأُمَّهَات أُصُول الأمراض الباطنيَّة خمسة، وهي المندرجُ ذِكرها.

أمَّا مصادرها فاثنان: نسيانُ الموتِ، وحُبُّ الرِّياسةِ، والمصدر الكبير حُبُّ الدُّنيا، فقد جاء الحديثُ عنه (ﷺ) قالَ: « حُبُّ الدُّنيا رأسُ كُلِّ خطيئةٍ » ، وكذا البُخاري عن النَّبي (ﷺ) أنَّه قال: « الدُّنيا ملعُونَةٌ ملعُونٌ ما فيها إلاَّ ذِكْر الله، وما وَالاَهُ، وعَالِمٌ ومُتعلِّمٌ » ، مُتَّفقٌ عليه.

فهذا دليلٌ على ذَمِّ الدُّنيا، وقد كَتَبَ الغَزَّالي في بيانِ ذَمِّها، وما لها وما عليها فانظره إن شِئْتَ، فهي - أي الدُّنيا- أصْلُ كُلِّ مَرَضٍ ظاهِرٍ وباطِنٍ، ولا يَخْلُو قلبُ منها ولا ينصَرِفُ عنها إلاَّ وقد تَصَفَّى من كل كَدَرٍ دُنيَوِيٍّ ومَرَضٍ باطِنِيٍّ فرعًا وأصْلاً.

والحاصلُ أنَّ الأصْلَ في ذلك كُلِّهِ النَّظَر إلى النَّفسِ، والرِّضا عنها، فينشأُ من ذلك كُلُّ وَصْفٍ مذمُومٍ، وخلق مذموم، وتَتَحَرَّكُ بالنَّظَرِ إلى النَّفسِ الأمراضُ الباطنيَّةُ.

وَمَنْ غَابَ عَن نْفسِهِ ولَم يَرضَ عنها ثُمَّ نَظَرَ إلى الله عَزَّ وجَلَّ بقلبِهِ وفِعلِهِ وغابَ عن نفسِهِ بحيثُ لا يرى لها قيمة ورآها في ذُلٍّ وانكِسَارٍ وتَذَلُّلٍ يُشْفَى من جميع الأمراضِ الباطِنيَّة أصْلاً وفَرعًا بذلك النَّظَرِ.

الرِّيَاءُ

واعْلَمْ أنَّ الرِّياءَ من الأمراضِ الأُصُوليَةِ الذي يتأتَّى منه كُلُّ فِعْلٍ مذمُومٍ، وصاحبُهُ لا خَلاقَ لَهُ في الآخرة، فجميعُ عَمَلِهِ الذي قَدِمَ به فهو هباءٌ منثُورٌ، فقد ضَلَّ سَعْيُهُ في الحياةِ الدُّنيا والآخرة، وقد ورَدَ من الآياتِ والأحاديثِ ما يُقرِّرُ ذلك، أورَدَها الإمَامُ الغزَّالي.

ولنَذكُرُ لك بعضها، فقد جاءَ في الحديث ما رواهُ أبو داود عنه (ﷺ) أنَّه قال: « الرِّياءُ الشِّرْكُ الأصْغَرُ » ، وفي الحديث: « لا يَدْخُلَ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ في قلبه مثقال ذرة من خردلةٍ من كبرٍ أو رياء أو حسد أو ضغينة يحملها على مسلم » ، مُتَّفقٌ عليه.

وأيضًا قال اللهُ تباركَ وتعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝ ﴾ ، فالرِّياءُ دليلٌ على خَرَابِ الباطن، ويُنادَى صاحبُهُ يوم القيامة يَا أَيُّها المُرائي، يَا أَيُّها المُشْرِكُ، أَقْدِمْ إلى الحِسابِ.

وقد اختلفَ العُلماء في الرِّياء، فقيل مُبطِلٌ للعمَلِ مع ثوابِهِ، وإلى ذلك ذهب الغزَّالي وابن المُبارك والدَّبَّاغ والأكثرون من الصُّوفيَّة.

وقد ذهَبَ المُحقِّقُون إلى أنَّ الرِّياءَ مُبطِلٌ للثَّوابِ دون العمل، وصَاحِبُهُ ممقُوتٌ، ومغضُوبٌ عليه، ومطرودٌ من الحَضْرَةِ الإلهيَّة، فهُوَ في نارِ الطَّرْدِ والبُغضِ والمَقْتِ. والرِّياء أصلاً مأخُوذٌ من الرُّؤيا. وأمَّا حَدُّه، فَهُوَ طَلَبُ المَنْزِلَةِ والمَحْمَدَةِ في قُلُوبِ النَّاسِ من عِلْمٍ أو عَمَلٍ.

قَولُهُ (طَلَبُ المنزلة): أي أن تكُونَ له منزلة في قُلُوب النَّاس بواسطة العِلم أو العمل، لا رَغْبَةً في ثَوَابِ الله والآخِرةِ، فذلك رِياءٌ بالإجماع ويُسمَّى الرِّياءُ الجلي، يُفْسِدُ الثَّوابَ بالإجماع.

فإذا ما طَرَأَ هذا النَّوعُ من الرِّياءِ على مُصَلٍ وهو في صَلاَةٍ بَطَلَتْ، أو عَقَدَها عند الإحرام فطرأ عليه كذلك البُطْلان فليُعِدْها، هذا القَوْلُ للإمام الغَزَّالي، وقد تَبَيَّنَ في القَولِ المشهُور أنَّ الصَّلاة صحيحة، ولكن لا ثَوَابَ فيها، ولم يزدَدْ صاحِبُها من الله إلاَّ بُعْدًا ومقتًا وغَضَبًا.

أمَّا كيفيَّة العلاج منه فقِسْمان:

الأوَّل: النَّظَرُ فيما وَرَدَ في ذَمِّ الرِّياءِ من الآيات والأحاديث والآثارِ، والنَّظَرَ في حقيقةِ الرِّياء، وأصلُهُ من باب العمل المحُبِط للثَّواب وغيره، وهذا النَّظَر دومًا يكون بالقلبِ باعتبار التَّأمُّلِ والتَّدبُّرِ.

واعْلَمْ يا أخِي أنَّ أركانَ الرِّياء ثلاثةٌ: الأوَّلُ منها المُرائي، وثانيهما المُراءَى بِهِ، وثالثهما المُراءَى إليه.

وتفصيلا: المُرائِي هو المُكلَّف، وهُو فاسِقٌ بالإجماعِ، ويتنافَى مع التَّقوى والاستقامة.

أمَّا المُراءَى بِهِ فَهُوَ العِلْمُ والعَمل، وأمَّا المُراءَى إليه فَهُمُ النَّاسُ.

وللرِّياءِ كذلك ثلاثةُ جُذُورٍ:

أوَّلُها: الرَّغبة فيما في أيدي النَّاسِ.

الثَّاني: مَخافة الذَّمِّ من النَّاسِ.

الثَّالثُ: طَلَبُ المَحْمَدَةِ والمَدْحِ من النَّاس.

فَمَن لم يقطع هذه الجُذُورِ الثَّلاثة من أصلِها لم يتخلَّص من الرِّياءِ إلى الموت.

وأقسامُهُ اثنان: رِياءٌ جَلِيٌّ، ورِياءٌ خَفِيٌّ، فإذا أردْتَ تفصيلَ ذلك فعليكَ بـ(إحياءِ الغَزَّالي، في رُبْعِ المُهلكات).

والنَّوعُ الثَّاني: التَخَلُّصُ منه عن طريقِ الرِّياضة والجُوع والعُزلةِ والتِّلاوة بالإكثارِ من (لا إلهَ إلاَّ الله) في الخلْوةِ وصُحبةِ عارِف بداءِ القلبِ، ثُمَّ إدامة النَّظَرِ في كونِ هذا الفعل وثوابِهِ كُلُّهُ مخلُوقٌ لله تعالى، وليسَ للعَبْدِ مُدخليَّةٌ في العَمَلِ بطَلَبٍ إلاَّ عن طريقِ الكَسْبِ والاكْتِسَابِ.

فَمَن أَدَامَ ذلك وأكثَرَ من الدُّعاءِ في جُنْحِ اللَّيْلِ مع الأسباب المُوصِّلَةِ لهذه الحقيقة يحصُلُ لَهُ من بعدِ ذلك غلبةُ الخَوف من الله، وعندما حَصُلَ لهُ شِدَّةُ الخَوْفِ من الله تَصَاغَرَتْ في نَظَرِهِ عُيُونُ النَّاسِ، وزَالَ عن قلبِهِ رَغْبَةُ النَّاسِ والمَنزِلَةِ والمَحْمَدَةِ ومَخَافَةَ الذَّمِّ والمَدْحِ فيَحْصُلَ في قلبِهِ اصطلامٌ ومحبَّةُ الله، وتَشْتَدُّ المَحبَّةُ، فلاَ يَرَى إلاَّ الله، وعند هذا المقام تَحْصُلُ المُشاهدةُ القلبيَّةُ، والاصطلامُ يُخلِّصُ من أصْلَ الرِياءِ وفَرْعِهِ.

وعلامةُ العِلاج منه أي الرِّياء واحِدٌ من أربعة أشياء:

إمَّا غَلَبَةُ المحبَّةِ في الله عَزَّ وَجَلَّ، فَلاَ يَعْمَلُ عَمَلاً إلاَّ قاصِدًا بِهِ ذات الله عَزَّ وجَلَّ.

أو ظُهُور العُبُوديَّة لله تعالى والقيام بحقِّ الرُّبُوبيَّة وذلك مُقدَّمٌ على الأوَّل.

أو يحصُل له شِدَّةُ الخَوفِ من النار وما فيها من عذاب، أو شدة الشوق إلى الجنة وما فيها من نعيم مُقيم، وهذا المَقَام دُونَ الأوَّلين.

وهو عند الصُّوفيَّة يُسمُّونه قاطعًا يقطع المُريد من الوُصُول لله، وإن كان غير مذموم شَرعًا، وصاحبه مُخلصٌ، وليس بمراء وكذا استواء الذَّمِّ والمدح على حد سواء.

والعلامُة الرَّابعة استواء المدر والذَّهب في عينيه، فهذه العلامات الأربعة دليل على سلامة القلب من الرياء وغيره.

* * *

السُّمعة والعجب

أما النوع الثَّاني والثَّالثُ من الأمراضِ الباطنيَّة، أي من الأُمهات الخمس، وهي السُّمعة والعجب:

فالسُّمعةُ هي: قَصْدُ العمل بطَلَبِ السُّمعة لتكون على منزلةٍ أو محمدةٍ في قلوب النَّاس، وجميع ما وَرَدَ في ذَمِّ الرِّياءِ وبُطلان الثَّواب هو كذلك في السُّمعة، وكيفيَّة العِلاجِ والتَّداوي كما جاء في الرِّياء. وأنَّها مُحبِطةٌ للثَّوابِ، وصاحبها فاسِقٌ ومقطُوعٌ وممقُوتٌ ومغضُوبٌ عليه.

وأمَّا العُجب: وهو استعظام العمل مع عدم إضافته إلى الله، فمن أُعجِبَ بعِلمه وعَمَلِهِ فهُوَ جاهِلٌ محضٌ، وهُوَ مغضُوبٌ عليه، وممقُوتٌ

ومطرُودٌ، وهُو مُبْطِلٌ لثوابِ الأعمال ويَدْخُلُ في قولِهِ تبارك وتعالى في الحديث القُدسي: « الكِبرياءُ ردائي، والعَظَمَةُ إزاري، فمن نازعني فيهما ألقيته في ناري ولا أُبالي ». مُتَّفقٌ عليه.

وأمَّا بيانُ كيفيَّة العلاج من العجب، فَهو أن يَنسِبَ جميعَ الأعمال من عِلْمٍ وعَمَلٍ لله تعالى، ثُمَّ يبرء نفسه التي بين جنبيه من ذلك العِلم والعمل، ويَشْهَد بقلبه أنَّهما مِنَّةٌ من الله على عبده، وليس له مُدخليَّة في العمل والعِلم إلاَّ عن طريق الكَسْبِ والاكتساب، فإن أدام ذلك النَّظر بواسطة القلب ذوقًا لا عِلمًا يحصُلُ العِلاجُ من ذلك، وتكثير العلاج كَثَرُة الرِّياضة كالجُوع والمُكابدة والسَّهَرِ والإكثار من الذِّكر مع صُحبةِ العارف بالله كما تقدَّم في الرِّياء والسُّمعةِ.

* * *

الكِبُر

المرضُ الرَّابعُ من أُصُولِ أُمَّهاتِ الأمراض الباطنيَّة هو الكِبر.

وقد ورد في ذمِّهِ آياتٌ وأحاديثٌ كثيرةٌ: منها الحديثُ القُدُسِيِّ المُتقدِّم، وأيضًا قوله صلواتُ الله عليه وسلامه: « والذي نَفْسُ مُحمَّدٍ بيده لا يدخُلَ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قلبِهِ مِثْقَالَ خَرْدَلَةٍ مِن ذَرَّةٍ من كبرٍ » مُتَّفقٌ عليه.

وقد وَرَدَ في ذَمِّهِ آياتٌ وأحاديثٌ كثيرةٌ، وهُو لا يفْلحُ معه عملٌ صالحٌ لأنَّه مُبيدٌ لجميع الأعمالِ، هادِمٌ لها، يُفسِدُها كما يُفْسِدُ الخَلُّ العَسَلَ، أو كما

يُفْسِدُ السُّمُّ الطَّعَامَ، وقد فَسَّرَ رسُولُ الله (ﷺ) (الكِبر) بقَولِهِ: «وهُوَ غمطُ الخلَقِ وبَطَرُ الحَقِّ»، فمعنى غمطُ الخلق: رُؤيَتهُم دونَكَ أَذِلَّةً حُقَراءَ.

وهذا عَيْنُ الكِبرِ على عِبادِ الله من المُؤمنين، وأمَّا المُتكبِّرُون والكُفَّارَ فالكِبرُ عليهم صَدَقَةٌ.

والتَّفسِيرُ الثَّاني قَولُهُ: (بَطَرُ الحَقِّ) بمعنى: ردِّهِ وعدمُ قبولِهِ من قائِلِهِ، ويتَّضِحُ من ذلكَ أنَّ الكِبر أُصُولُهُ اثنان، وفرُوعُهُ أربعُون فرعًا.

وهُو: أي الكِبرُ مُبطِلٌ لثوابِ الأعمال، وصاحبه في نارِ الطَّردِ والبُغضِ والغَضَب.

فإذا ما أَرَدْتَ العِلاَجَ منه يا أخي والفِرارَ فانْظُر ما وَرَدَ في ذَمِّ الكِبرِ من الآيات والأحاديث وآثار القَومِ، ونَظْرَة أُخرى إلى حقيقة نفسِكَ كيف كُنت أوّلاً مَنِيًّا تُمنَى، ثُمَّ دمًا لزِجًا وذلك أيضًا نجس، ثُمَّ لحمة مُضَغُ، ثُمَّ صُوِّرْتَ عظْمًا، ثُمَّ كَسَى العِظَام لحمًا.

وهكذا حتَّى بَرَزَتْ من أُمِّكَ من بين دَمٍ نَجِسٍ، ثُمَّ تَحْمَلُ من العَذِرَةِ والبَولِ وكُلُّ ذلك نَجِسٌ، فَكَيفَ يَصِلُ الكِبْرُ إلى ذاتِكَ بعدَ ذلك وأنتَ جيفةٌ ومأواكَ التُّراب، فَإِذَا نَظَرتَ إِلَى ذاتِكَ نظرًا معنويًّا وذوقِيًّا لا شَكَّ إنك تتخَلَّص من الكِبر.

والسَّببُ الثَّاني المُعِينُ علي ذلك، وهُو كَثرةُ الرِّياضة كالجُوعِ والعُزلة.

وكثرة الذكّر مع الفِكرِ، وصُحبة العارف بداء القَلبِ حتّى يحصُل لك تجلّي الفناء وتُشاهد كَثرة الأنوارِ وتلك التّجلّيات على قلبك فتنمحق الذّات، وتكون أقلَّ من العُصْفُورة، ولا ترى لنفسِكَ قيمةً بشُهُودِ عَظَمَةِ الله وجلاله وسُلطَانه في القلب، فيفنى العبدُ عندئِذٍ عن جميع الكون والمُكوِّنات حتَّى عن نفسِهِ التي بين جنبيه، فَلاَ يَرَى لَهَا قِيمةً وهُوَ عَيْنُ الشِّفاء من الكِبر وبقيَّةُ الأمراضِ الباطنيَّة.

* * *

الحَسَد والغِل

المَرَضُ الخامسُ: الحَسَد، ومضمُومٌ إليه مَرضٌ آخر هو الغِل.

وقد ورَدَ في ذَمّهما آياتٌ وأحادِيثٌ كثيرةٌ:

فأمَّا الآياتُ فقَولُهُ تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.

وأَمَّا الأحادِيثُ: «الحَسَدُ يَأْكُلُ الحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارَ الحَطَبَ»، وفي الحديث أيضًا قوله (ﷺ): « لاَ يَدْخَل الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ من كِبْرٍ أو رِيَاءٍ أو حَسَدٍ»، وأيضًا الحديث: «ولا تَحَاسَدُوا ولا تَبَاغضُوا ».

وفي الحَسَدِ عَشْرَةُ خِصَالٍ مذمُومَةٍ لم تَكُن في غَيْرِهِ: «خِصلتان مَنْ كانتا فيه مُنِعَ خَيْرَيِّ الدُّنيا والآخرة: سُوءُ الظَّنِّ بالله وعبَادِهِ».

وأمَّا تعريفُ الحَسَدِ فهُو تَمَنِّي زوال نعمة الغير، فَهُو من الكبائِرِ، ومُحْبِطٌ للأعمال أي الثَّوابِ، ومُنازِعٌ للحَقِّ عَزَّ وجَلَّ، فَلَو عَلِمَ النَّاسُ ما في جانِبِ الله لما حَسَدَ الآخَرُ البعضَ، والحَسَدُ دليلٌ على الجَهْلِ بالله.

وأمَّا الغِلُّ فهُو الانطواءُ على أَذِيَّةِ المُؤمنين، ففي الحديث: « لا يَدْخُلَ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ في قَلْبِهِ ضغينةٌ على مُؤمن » ، وأمَّا هو حقيقة فالانطواءُ على أَذَيَّةِ المُؤمنين، ثُمَّ انفكاكُهُ وسُوءُ الظَّنِّ بالله، بأنْ يَظُن عَدَمُ المَغْفِرَةِ والرَّحْمَةِ، وهذا رَبَّما يُؤَدِّي إلى الكُفرِ.

وسُوءُ الظَنِّ بِعِبادِهِ يُحَرِّكُ جميعَ آفاتِ اللِّسَانِ وهِي أربعُون آفَّة. قال تعالى في مُحكم كتابه العزيز: ﴿ **ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ** ﴾ ، ومجموع ذلك عشرة من الأمراض الباطنيَّة المشهورة، وتداوِي ما ذُكِرَ على نهجِ ما وَرَدَ في فصلِ الرِّياءِ المُتقدِّم آنفًا.

وكَذلك من الأمراض: المُداهنة والمُجادلة بغيرِ حقٍّ وبُغْضِ الفقراء والتَّواضع للأغنياء، فقد وَرَدَ في الحديث: « مَنْ تَواضَعَ لِغَنِيٍّ لأجْلِ غِناهُ فَقَدْ ذَهَبَ ثُلُثَا دِينِهِ » .

ومِنَ الأمراضِ: الغِشُّ والخلابة والهَوى والتَّزيُّن لأجل النَّاس، وخُلُو القلب عن الحُزنِ والأماني والقَسَاوة والنِّفاق والغَفلة، ومخافة الذَّمِّ، ومَحَبَّة المَدْح، والرَّغبة فيما في أيدي النَّاس، وحب المحمدة والمنزلة، وحُبُّ الجاهِ والمالِ، فقد ورد في الحديث: « حب الجاه والمال يُنبِتَانِ النِّفاقَ كَمَا تُنْبِتُ الأرضُ البَقْلَ » .

وكـذلك الظُّهـورُ وحُـبُّ الـشَّرَفِ وبُغـض العُلـماء والـصَّالحين، والجُلُوس مع العُـصاةِ المُجاهرين بالمعصيةِ، انظُر بقيَّة ذلـك في (إحيـاء علوم الدِّين) إنِ شِئْتَ...

ولقد عَلِمتَ أنَّ مَصَادِرَ الأمراض الباطنيَّة تنشَأُ من النَّظَرِ إِلَى النَّفْسِ والرِّضا عنها، فينشأ عنه الغُرُور، والغُرُورُ يُفْضِي إلى العجـب، والعجـبُ يُفْـضِي إلى الكِبرِ، والكِبْرُ يُفْـضِي إلى الرِّيـاءِ، وبـذلك تتحَـرَّكُ فيـكَ جميعُ الأمراض الباطنيَّة وهي ألف وستمائة مرض.

أمَّا القِسمُ الثَّاني -الذي يَتِمُّ بِهِ العِلاَجُ والتَّصفِيَةُ الكاملةُ للقَلْـبِ-:

فَهُـو النَّظَـرُ إلى الله تعـالى، وإلى فِعْلِـهِ، وإلى تَجَـلِّي الأفعـال، ثُـمَّ بِـذلِكَ النَّظَـرُ يَعِيـبُ عـلى نفـسِهِ فـلا يكـون راضـيًا عنهـا، فينـشأ منـه الانكـسار والتَّواضع حَتَّى يقُودُهُ إلى الإخلاص وإفراد العُبُوديَّة لله، فيكسَبُ بذلك مقامات اليقين، وهو كُلُّ خُلُقٍ محمُودٍ من صَبْرٍ وتَوَكلٍّ وتوبَةٍ وإخـلاص ومحبَّةٍ وزُهْدٍ وشُكْرٍ وفِكْرٍ ورِضا وخُلُقٍ حَسَنٍ.

وفي الخُلُقِ الحَسَنِ مبَاحِثُ عوِيصَةٌ، وعِبَارَاتٌ طويلةٌ ذَكَرَها الغَزَّالي. أمَّـا أُصُـولُهَا فأربعـة: أي الخُلُـقُ الحسَن، والأصْـلُ الأوَّلُ منهـا الحكمـة، بمعنى العِلمُ من أصلِ الدِّين وفروعه، والتَّضلُّع فيه.

والأصل الثَّاني: العدالة: وتشمل كُلَّ واجب ومندوب، فينـدَرِج في العدالة فعل جميع المأمورات واجتناب جميع المنهيات.

والأصل الثّالث: الشَّجاعة، ويدخُل فيها الجهاد في سبيل الله، والرِّباط، والحج إلى بيت الله الحرام والأمر بالمعروف، والنَّهي عن المُنكر، وإقامة الحدُود وكُل فعل فيه من المشقَّة، والخَوفُ يندرجُ في الشَّجاعة.

الأصل الرَّابع: السَّخاء، ويدخل فيه السَّخاء بالأموال والرَّأفة والمحبَّة والشَّفقة والمَحنَّة على العباد، والصَّدقة للفقراء والمساكين، وبذل النَّفوس والانكسار والتذُّلُل والمسكنة.

كُلُّ ذلك يندرج في الخلق الحسن ولم يكتمل كُلُّ ذلك، وأزيدُ منه إلى ما لا نهاية لكماله إلاَّ في رسُولِ الله صَلواتُ الله عليه وسَلامه.

ومن على الأثر والفيض المُحمَّدي من الصَّحابة والتَّابعين ومن صَحِبَهُم من تابعي التَّابعين والأولياء والصَّالحين.

ولكُلِّ من تَكَمَّلَ فيه الخُلُقُ الحَسَنُ تُشَدُّ إليه الرِّحال حيثما كان، لأنَّه الوارثُ الحقيقي الذي وَرِثَ رَسُول الله صلوات الله عليه وسلامه في الخُلق الحسن.

وفي هذا كِفايَةٌ لِمَنْ له قَلْبٌ أو سَمعَ وأرادَ أن يَسْلُكَ السَّيْرَ إلى الله وأخلاق النَّبيين والمُرسَلين.

وقد تَرَكْنَا تعارِيفَ مقامات اليقين خَوفًا من التَّطويل، ثُمَّ أشرنا لك إلى مباحث الغزالي لِتَمام الفائدة.

ولنختمَ القولَ بأبياتٍ منسُوبَةٍ لسَيِّدي مُحي الدِّين بن عربي، قال ﷺ:

تَوَضَّأْ بِماءِ الغَيْبِ إنْ كُنْتَ ذَا سِرٍّ وإلاَّ تيمَّمَ على الصَّعِيدِ أو الصَّخْرِ

وَقَدِّمْ إِمَامًا كُنْتَ أَنْتَ إِمَامُهُ وصَلِّ صَلاَةَ الفَجْرِ فِي أَوَّلِ العَصْرِ

فَهَذِي صَلاَةُ العَارِفِين بِرَبِّهِمْ فَإِنْ كُنْتَ مِنْهُمْ فَانْضَحِ البَرَّ بِالبَحْرِ

هذه الأبياتِ لُمحي الدِّين بن عربي -كما سَبَقَ، وقد وَضَعَ عليها الكَثِيرُ من العُلماء المُحقِّقِين شرحًا، فاقتطَفْتُ من ثِمَارِ شَرْحِهم ما يَلِيقُ بالمَقَامِ، ولَدَيَّ مُصَنَّفٌ كَامِلٌ فِي شَرْحِهَا، فَلَنِذْكُر مِنهُ مُقتطفًا لتكميلِ القصْدِ وتحصيل المُرادِ فِي التَّحقيقِ والتَّدقيقِ.

فاعلم يا أخي أنَّ هذه الأبيات تُبيِّنُ طَرِيقَ السَّالِكِينَ، وأربابَ السِّرِّ، وأرباب الفتحِ والعارفين بالله.

أمَّا قَولُنا (السَّالكين): جمعُ سَالِكٍ، وهُوَ البادئُ في طرِيقِ الله، وهُوَ على قِسمينِ:

القِسمُ الأوَل سَالِكٌ مجذُوبٌ.

والقِسمُ الثَّاني سَالِكٌ مَحْضٌ غير مجذُوب .

وكِلاهُما محجُوبان.

فَشَرَعَ سَيِّدي مُحي الدِّين بن عربي صاحِب الفُتُوحاتِ المَكِّيَّةِ يُبَيِّنُ كيفيَّة العِلاج من داءِ القلبِ، فقال ﷺ :

تَوَضَّأْ بِمَاءِ الغَيْبِ إنْ كُنْتَ ذَا سِرٍّ:

يَعنِي: أيُّها المُريدُ السَّالِك تَوَضَّأْ بماءٍ هو الغَيب.

والمُرادُ بالوُضُوءِ: النَّظافة من الأوساخِ الحِسِّيَّةِ والمعنويَّةِ.

والمُرادُ بالأوسَاخِ: الدُّسُومات وغيرها.

أمَّا المُرادُ بالأوسَاخِ المعنويَّةِ: فهي الذُّنُوبُ التي عَلِقَتْ بالجَوَارِحِ والقَلْبِ، قَالَ تعالى في مُحْكَم الآيَاتِ: ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا** ﴾ - .

فالمُرادُ بالرِّجسِ: الذَّنب المُدَنِّس، وهُوَ كُلُّ ما عَلِقَ بالجَوَارِحِ والقَلْبِ.

فَشَرْطُ الطَّهَارةِ ذَهَابُهَا عن القلبِ والجَوَارِحِ كالأمراضِ المُتقدِّم ذِكْرُها، وهي أَلْفٌ وسِتُّمائةُ مَرَضٍ، فَشَرْطُ ذَهَابِهَا عنِ القَلبِ والجَوَارِحِ حَتّى تَنْشَأَ بَعْدَ ذلك الطَّهارةُ المعنويَّةُ التي تَقُومُ بالقَلبِ، أشَارَ إليهَا قَولُهُ تَبَارَكَ وتَعَالَى: ﴿ **وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا** ﴾ ، فإذا طَهُرَ القَلْبُ مِنْهَا صَلُحَ للدُّخُولِ في الحَضْرَةِ الإلهِيَّةِ، أَرَأَيْتَ أَنَّ مَنْ كان بِثَوبِهِ نَجَاسَةٌ أو قَامَ ببدَنِهِ حَدَثٌ لا تَصِحُّ صَلاتُهُ، وصَلاتُهُ باطِلَةٌ بالإجْمَاعِ.

وكذلِكَ كُلُّ مَنْ كانَ بِقَلْبِهِ شَيْءٌ مِن رِيَاءٍ أو سُمعَةٍ أو عجبٍ، وبقيَّة أُصُولِ الأمراض الباطنيَّة وفرُوعِها فَلاَ يَصْلُحُ للحَضْرَةِ الإلهيَّة، ولا يزدَادُ من الله إلاَّ بُعْدًا، فإذا عَلِمْتَ هذا فعلَيْكَ بالتَّخَلُّصِ من الأمراضِ الباطنيَّة، ودَاوِي القَلْبَ بِمَاء هو السِّرُّ.

وأقولُ: هذا السِّرُّ لأربابِ الفتحِ.

أمَّا المُرَادُ بالماء فكنايَةٌ عن التَّجَلِّياتِ الإلهيَّة والأنوار التي يقذفُها اللهُ في قُلُوبِ مَنْ يَشَاءُ من عِبَادِهِ الذين اصْطَفَى، فَيَحْصُلُ بذلك إمحاقٌ للجَسَدِ، حَتَّى يتلاشَى ويَضْمَحِلُّ، فعِندَ ذلك يَتصَفَّى القَلْبُ من الرُّعُونات النَّفسِيَّة فَتَخْرُجُ كأنَّها دُخانٌ أسودٌ.

ثُمَّ إذا تَخَلَّصَ منها القَلبُ تَوَارَدتْ الواردات وأفاضَ الله عَزَّ وجَلَّ على ذلك القلبِ النَّيِّر فيضًا سَنِيًّا من النُّورِ المُقدَّسِ ليكون في زواياه، وفوقه وتحته إلى أن يتركَّز بذلك الفيض الإلهي، فيَمُنَّ الله على ذلك المُريدِ بالفَتْحِ، فَيَرَىَ ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، ثُمَّ يُفيضُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ عليه بالسِّرِّ المُقدّسِ.

قُلْتُ: والمُرَادُ بالسِّرِّ هُوَ زِيادَةُ من الفَتْحِ، والدَّليلُ على ذلك قَولُهُ تعالى حِكَايَةً عن الخَضِرِ فِي سُورَةِ الكَهْفِ: ﴿ وَعَلَّمْنَهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾، أي مِن قِبَلِنَا عِلْمًا من غَيرِ واسِطَةِ شَيْخٍ أو مُدَرِّسٍ، بَواسطة الإلهام والفَتْحِ، ذَلِكُم هُو السِّرُّ المُقدَّس.

أمَّا إذا كُنتَ أيّها المُريدُ محجُوبًا مريضًا بشُهُودِ الأكوانِ والمُكَوَّناتِ، ولم تستطعْ الحُصُولَ على ذلكَ السِّرَ المُقدَّسَ عن طَرِيقِ الرِّياضة والجُوعِ والمُكابدات وصُحبةِ العارفين بالله، فَعَليكَ بالانتقال إلى التَّيَمُّمِ...

قَالَ رَضِيَ اللهُ عنه:

وإلاَّ تَيَمَّمْ عَلَى الصَّعيد أوِ الصَّخْرِ:

فالُمرادُ من قَوْلِ مُحي الدِّين بن عربي بالتَّيمُّمِ: التَّسليم فيما جاءتْ بِهِ السّادة الصُّوفيَّة والأولياءُ والعارفون بأن يُسَلِّم لهم في جميعِ ما قَالُوهُ في كُتُبِهِم، ونَطَقُوا بِهِ كما قالَ أبو حامد الغَزَّالي: مَن لم يَكُن له إلمامٌ بكلامِ القَوْمِ يُخْشَى عليه المَوتُ على سُوءِ الخاتمةِ: أي الكُفْرِ، وأقَلُّ الإلمامِ الإذعان بكلامهم والتَّصديق.

فهذا معنى التَّيمُّم بأن يكون مُذعِنًا ومُصدِّقًا بكلامِهِم، وشَبَّهَ ذلك بالنِّسبةِ للتَّسليمِ والإذعان بأن يكونَ كالصَّخْرِ أوِ الصَّعيد بالنِّسبة لعدمِ الإنكار.

أرَأَيْتَ مَنْ أَمْلَى كلامًا على صَخْرٍ فَهَل يُتَصَوَّر الإنكار من الصَّخرِ؟ قُلتُ لا. فالُمريدُ الُمتيَمِّم يكونُ مِثْلَ هذه الحالة، فيلحق بإذنِ الله بالأوَّل وهُوَ صَاحِبُ الفتْحِ.

قَالَ أبو القاسم الجنيد: الإيمانُ بِعِلْمِنا هذا ولاَيَة.

فقد تبَيّنَ لنا أنَّ طَرِيقَ شِفاء القلب لا يكونُ إلاَّ بأمرين: عن طريق المُجاهدةِ والمُكابدةِ والرِّياضة حَتَّى يأتيه الفيض والفتحُ الإلهي، أو يلتزم التَّسليمَ والإذعانَ والقَبُولَ بما أفاضَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ على الأولياء والصُّوفيَّة، وهذا دُون الأوَّل.

فإذا ما فَرَغْتَ من طَهارَةِ القَلبِ بأحَدِ الأمرين فعليكَ بعدَ ذلك بالشُّرُوعِ في الصَّلاةِ، والمُرَادُ بالصَّلاةِ (الصِّلَة) أي كَنايةٌ عن ربطِ القَلب بالله، واستغراقه في الله، والفناء عما سِوَى الله، وعن نفسه التي بين جنبيهِ، وعن أفعالها مع النَّظَرِ في أفعالِ الله، وهذا ما يُسمُّونه (بالجَمع).

ففي الحديث عن النَّبيِّ (ﷺ) أنَّه قال: « لِي وَقْتٌ مع الله لا يَسَعُنِي فِيهِ نَبِيٌّ مُرسَلٌ ولا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ » .

قال رضي الله عنه:

وَقَدِّمْ إِمَامًا كُنْتَ أَنْتَ إِمَامُهُ:

وذلك يعني من بعْدِ الدُّخُول في الحَضْرَةِ الإلهيَّةِ قَدِّمْ إمامًا التي هي الروُّح أنتَ إمامه إشارةً إلى النَّفسِ، قَدِّم الرُّوحَ على النَّفسِ عند دُخُول الحَضْرَةِ الإلهيّةِ.

ومعلُومٌ أنَّ النَّفسَ كانت إمامَ الرُّوحِ سابقًا، وأنَّها: أي النَّفس تَميلُ للدَّناءات والمعَاصِي وحُبِّ الدُّنيا ونُزُولِ الهِمَّةِ والأكلِ والشُّربِ والذَّمِّ والمَدْحِ والرُّوح أسيرةٌ لها، بينما هي الإمامُ الحقيقي.

وقد عَطلَّتها في جميع سيرِها بتسخيرِ النَّفسِ لك، فقَدِّم الرُّوحَ قُبيْل الملك. قال تعالى واصفًا الملائكة : ﴿ **لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** ﴾ الآية.

ومِمَّا يُعِينُ على ذلك تَقَدُّم الرُّوح على الجَسَدِ موتات أهل الله الأربعة.

قال سَيِّدي مُحيي الدِّين بن عربي في (الفُتُوحات المَكِّيَّة): «مَوتاتُ أهلِ الله أربعةٌ: الأوَّل المَوْتُ الأبيض، ثُمَّ الأحمر، ثُمَّ الأخضر، ثُمَّ الأسود»، ومَنْ ماتَ بهذهِ الموتات حَيِيَتْ رُوْحُهُ وقَلبُهُ، وحَصُلَ له الوُصُول إلى الحَضْرَةِ الإلهيَّة.

أمَّا الأوَّل: وهُو الجُوعَ، فالاقتصَارُ على أَكْلَةٍ خفيفةٍ من حلالٍ، وما يَقُومُ ويَقُوتُ البِنيَةِ، وإنَّما سُمِّي بالمَوتُ الأبيَض لأنَّه يبيضُ بِهِ الباطِنُ والقَلْبُ، ويَرَى مَلَكُوتَ السَّموات بذلك.

وقد ورَدَ ما وَرَدَ في فَضْلِهِ، أي الجُوع من أحاديث كثيرة وآثارٍ شَتَّى.

المَوتُ الثَّاني: وهو الأحمر، والمُرادُ بِهِ هُنا مُخالفة النَّفس عند أهوائها إذا خُولِفَتْ احْمَرَّتْ، فيفِيضُ بذلِكَ نُورٌ للسَّريرة فَتدْنُوا بِصَاحِبهَا من الحَضْرَةِ الإلهِيَّةِ.

والمَوتُ الثَّالثُ: الأخضرُ، وإنَّما سُمِّيَ أخضَرَ وهُو منسُوبٌ للأرضِ باختلاف أحوال ألوانِها من اخضرارٍ واصفِرَارٍ وبياضٍ، وهُو كنايةٌ عن طرحِ المُريدِ للمُرقعات من قِبَلِ الحلال.

المَوتُ الرَّابعُ: وهُوَ الموتُ الأسودُ، وهُوَ أشَدُّ مَوتات أهلِ الله، وأقسَى على النَّفسِ من جميع الموتاتِ، وقَليلٌ من القَوْمِ واجِدُهُ إلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبِّي، وهُوَ تَحَمُّلُ الأذيَّةَ من النَّاسِ من قَذْفٍ أو شتيمةٍ أو ضَرْبٍ أو سَلْبٍ، وهُوَ كِنايَةٌ عن الصَّبرِ، وإنَّما سُمِّيَ موتًا أسودًا لأنَّ النَّفسَ إذ

رُمِيَتْ بالذَّمِّ أوِ القَذْفِ أو الشَّتيمةِ اسْوَدَّتْ، فإذا صَبَرَ المُرِيدُ على ذلك يَفِيضُ سَوَادُ النَّفسِ نُورًا عليها، فبه يترَّقى إلى الرُّوحِ، ثُمَّ يَنمحقُ الجَسَدُ فتكون الرُّوح هي الإمام والجسَد تَبَعًا لها.

قَالَ: ثُمَّ انتقَلَ يَتكَلَّمُ على إدامة السَّير إلى الله وعَدَمُ الرُّجُوع عن طريقِه ولَوْ نُشِرَ بالمَناشِير حتَّى يأتيه اليقينُ، وهُوَ المَوتُ، فلا يَرْجِعُ عن طريق الله، فقال:

وَصَلِّ صَلاَةَ الفَجْرِ فِي أَوَّلِ العَصْرِ:

فالمُرَادُ بالصَّلاَةِ الصِّلَةُ: أي صِلَةُ العبد بربِّه، ولا يَكُونُ إلاَّ بإدامة الأعمالِ الظَّاهرةِ المُطابِقَةِ للباطِنِ من التَّكاليف الشَّرعية سُننها ونوافِلُها مع رِبطِ الكُلِّ بالرُّوحِ والقلب، لا مِنْ حيث حَرَكَةِ الجَوَارِحِ مع الغَفلةِ عن القلب، وعدَمُ الحَضُور مع الله.

فهذه لا تُفيدُ إلاَّ باعتبارِ الخُرُوج عن (العُهدة)، وأن يجعل بدايته عين نهايته، والمُرَادُ بالعَصرِ الذي هُوَ فيه، والمُرَادُ بالفَجْرِ فجر المعرفة التي تُشْرِقُ على القُلُوبِ. وأنَّها لا تَغِيبُ ليلاً ولا نهارًا، وإنَّما تنفَجِرُ أربعينَ عينًا في القلب من العُلُومِ والمعارِفِ والأسرار على اللسان فينفع بها الأُمَّة، ثُمَّ قالَ ﷺ في هذه الصِّلة:

وهَذِي صَلاَةُ العَارِفِين بِرَبِّهِم:

ولَيْسَت هِيَ صَلاَةُ العَامَّةِ، ولا العُلَماء ولا الوُعَّاظُ ولا الفقَرَاء ولا

المريدين، وإنَّما هي خَاصَّةٌ بالأَوْلِيَاءِ والصَّالحِينَ مِن بَعْدِ الكَشْفِ والسِّر وليس مُراد ابن عربي الصَّلاة ذات الرُّكُوعِ والسُّجُود، وإِنَّما المُرَادُ مِنْهَا الصِّلَةُ بين العبدِ ورَبِّهِ.

ثُمَّ قال: فَإِنْ كُنْتَ منِهُم رَحِمَكَ اللهُ، أي من الأولياء والعارفين بالله قُلنا فِيكَ دليلٌ بِذلكَ، فقالَ:

فإنْ كُنْتَ مِنْهُمْ فانْضَحِ البرَّ بالبَحْرِ:

المَعْنَى المُرادُ بالنَّضحِ: البُرُوزُ، بأن تكون جامعًا لِعِلْمَي أَصْل الشَّريعة وفرعها، وكذلك الحقيقة وثِمارِها - وبِمعنى أوضح أن تكون مُلِمًّا بالشَّريعةِ والحقيقةِ.

أمَّا المُرَادُ (بالبر) فالشَّريعة تشبيهًا (والبحر) الحقيقة التي هي أسَرَارُ الشَّريعة، وهذا من بابِ السِّرِّ المكنُون، ففي الحديث عنه (ﷺ) أنَّه قَال: «إِنَّ مِنَ العُلُومِ كَهَيْئَةِ المَكْنُونِ» .

وهذا آخِرُ كلامنا على منظُومةِ سَيِّدي مُحي الدِّين بن عربي، وقد اختصَرنا الكثيرَ، وفي هذا كِفَايَةٌ لِمَن لَهُ بَصِيرةٌ وقَّادَةٌ، وأرَادَ طَرِيقَ الله عَزَّ وجَلَّ ، وطرِيقَ الآخرةِ، وعَلَى الله قَصْدُ السَّبِيلِ.



خاتمة المطاف

هذا، ونرجُو من البارِئ إدْرَاجنا في جُملةِ المُصَنِّفِين في أفضَلِ العلوم على الإطلاق من توحيد وتصَوُّف وفِقْهٍ وغيرِ ذلك.

وإنَّما قَصْدُنا من ذلك كشف ما خَفِيَ على الأمَّة مِن كُتُبِ المُصَنِّفِين، إذ هيَ مليئةٌ باللُّغةِ، مُشبَّعةٌ تشبيعًا كثيرًا يَخْفَى على المُطلع ثمرتها، فأرَدنا أن نُسَهِّلَ على المُسلمين هذا التَّصنيف والتَّأليف بالنِّسبةِ للتَّوحيد وللفِقهِ والتَّصوُّف.

ولنا (ذخيرة) أيضًا واسعة العُلُومِ مُحصّلة ما عليه حاصِل المذهب في الفقه من العبادات، ونرجو من الله أن يُوفِّقنا أن نُكملها وإبرازها إلى حيز الوُجُود.

ونسأل اللهَ تعالى أن يَحشُرَنا في زُمرة المُؤَلِّفِين والمُصَنِّفين من عُلَماءِ الآخرةِ، وفي صفُوفِ النَّبيين والمُرسَلِين، ويَجْعَلُنا بهذا الكِتابِ سَالكين طريقَ السَّادة الصُّوفيّة والأولياء والصَّالحين.

وأن يُصَفِّي بواطِننا من داءِ القلبِ والرُّعُونات النَّفسيَّة، وأن يَختِم لنا والمُسلمين كافَّةً، ويُحْسِن الخاتمة والإيمان الكامل، وأن يجعلنا من أرباب السِّر والفَتْحِ، وأن يُدِيمَ علينا ذلك قَبلَ الموتِ، وأن يجمعنا بنَبيهِ ورسُولِهِ (ﷺ).

وهذا آخرُ كلامنا على التَّوحيد والتَّصوُّفِ، فنرجُو من الله قَبُولَهُ وقبول مَن انتفَعَ بِهِ أو قَرَأَهُ.

وصَلَّى الله على سَيِّدنا مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ، وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ وسَلِّم تسْلِيمًا كثيرًا.

والحَمْدُ لله رَبِّ العالمين.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

تقريظ

الحمدُ لله رَبِّ العـالمين، وصَـلّى اللهُ عـلى سَـيِّدِنا مُحَمَّـدٍ وآلِـهِ وصَـحْبِهِ وسَلِّمْ وبعد:

فقد أطلَّعتُ على (ذخيرةِ) التَّوحيـد لفـضيلةِ مولانـا العـالم العَلاَّمـة، والحبر الفَهَّامـة، وإرث علـم الـشَّريعة والحقيقـة، وبقيَّـة سَـلَفنا الـصَّالح الـشيَّخ الطَّـاهر مُحمَّـد سـليمان ﷺ: فهِـي بِحَـق اسـمٌ عـلى مُـسَمَّى، مُنيرةٌ للفُؤَادِ، وذخيرةٌ للمعـاد، وتكِيـدُ الأعـداءَ والحُـسَّادِ، فَجَـزَى اللهُ أُسـتاذَنا وقُـدْوَتَنا ودليلنـا إلى الله الـشَّيخ الطَّـاهر، ونَـوَّرَ ضَرِيحَـهُ. وأرجُـو مـن أسَاتِذَتِي، وأُوصِي نفسِي والتمِسُ من زُمَلائِي، وأطْلُبُ مـن جميـعِ أحبـابي اقتناء هذا السِّفْر العظيم. وهذا المُصَنَّف العزيز النَّادرِ، والدُّعاء بـالتَّوفيقِ للأُستاذ/ مُختار عبد اللطيف، تِلميذ الشَّيخ، ولِكُـلِّ مَـنْ عَاوَنَـهُ في إنجـازِ هذا العمل.

تَقَبَّلَ اللهُ من الجميعِ، إنَّهُ نِعْمَ المولى، ونِعْمَ النَّصير، وبالإجابةِ جدير. وصَلَّى الله على سَيِّدنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصَحْبِهِ وسَلَّم.

دياب أحمد دياب
أدهميَّة أم درمان

١٣ شعبان ١٤١٨هـ
١٣ ديسمبر ١٩٩٧م

الفهرس

الموضوع			الصفحة